

## الفصل الثاني

صورة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية

في سنة ٥٨٣ هـ

obeikandi.com

## صورة الفتح القدسي

عندما فتح السلطان صلاح الدين حلب في سنة ٥٧٩ هـ، كتب إليه الفقيه مجد الدين بن جهبل الحلبي الشافعي ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه، ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى الهكاري، ولكنه لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وأخبر القاضي محيي الدين بن زكي الدين بذلك. وقد أنشأ القاضي محيي الدين قصيدة يمدح بها السلطان، عندما فتح حلب في صفر من السنة الأنفة الذكر، يقول فيها مبشراً بالفتح القدسي<sup>(١)</sup>:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب  
فعجب صلاح الدين من مقالته، ولما تم فتح بيت المقدس، في رجب من سنة ٥٨٣ هـ أكرم صلاح الدين مجد الدين بن جهبل بأن كان أول من درّس درساً في الفقه، في الصخرة المشرفة، كما أكرم القاضي محيي الدين بأن كان أول من خطب في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال الصليبي<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: البرق الشامي ١٠٩/٥، سنا البرق الشامي / ٢٢٩، الروضتين ٤٥/٢، ٤٦، مفرج الكروب ١٤٥/٢، مضممار الحقائق / ١٤٣، الكامل ٤٩٧/١١، مرآة الزمان ٣٧١/٨، ١٤٣/١٤، ١٥٣، زبدة الحلب ٧٢/٣. المختصر ٦٦/٣، تنمة المختصر ١٤١/٢، النجوم الزاهرة ٩٥/٦، البداية والنهاية ٣١٤/١٢، تاريخ الإسلام / ١٥٢، روضة المناظر / ٩٠، الاعلام والتبيين / ٨٤، مرآة الجنان ٣٧٥/٣، شفاء القلوب / ١٠٦، ١٣٠، نزهة الناظر / ١٠٤، الأنس الجليل ٣١٧/١، ٣٣١، لطائف أخبار الدول / ١٧٢، رحلة الشتاء والصيف / ١٩٩، اعلام النبلاء / ١٣٨، ١٣٩.

(٢) انظر: سنا البرق الشامي / ٢٢٦، مفرج الكروب ١٤٥/٢، الروضتين ٤٦/٢، المختصر ٦٦/٣، تنمة المختصر ١٤١/٢، الكامل ٤٩٧/١١، مرآة الزمان ٣٧٦/١، تاريخ الخلفاء / ٤١٨، مرآة الجنان ٣٧٥/٣، شفاء القلوب / ١٣٠، المدارس / ٢٣٠-٢٣٢، الأنس الجليل ٣١٧/١، ٣٣١، البداية والنهاية ٣٢٦/١٢، اعلام النبلاء / ١٣٨، ١٣٩.

يقول العماد الأصفهاني : «ويشبه هذا أنني في سنة ٥٧٢ هـ، طلبت من السلطان جارية من سبي الأسطول المنصور» في أبيات يتنبا فيها بفتح القدس، ويربط بين طلبه من السلطان، وبين ما يأمل به من كرام السبايا عند فتح القدس، يقول:

يُؤمِّلُ المملوكُ مملوكَةً تُبَدِّلُ الوحشة بالأنس  
لا زلتَ وهاباً لما حازه سيفك من حورٍ ومن لعس  
وإنني آمل من بعدها كرائم السَّبي من القدس  
«قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، ووهب لي تلك السنة ما سألت.  
وأعطاني عام فتح القدس ما أملت»<sup>(١)</sup>.

ومما تقدم يتبين لنا كيف تردد صدى التنبؤ بالفتح القدسي في الأدب العربي آنذاك. ومن ذلك أيضاً ما يذكره ابن أبي أصيبعة، في ترجمة الطبيب أبي سليمان داود بن المنى بن أبي فانة<sup>(٢)</sup> أنه قد «ظهر له في أحكام النجوم أن الملك الناصر يفتح البيت المقدس في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة». وقد أرسل الطبيب الأنف الذكر ابنه أبا الخير<sup>(٣)</sup> رسولاً إلى الملك الناصر «يبشره بملك بيت المقدس، في الوقت المذكور»، فوصل في غرة سنة ٥٨٠ هـ، وأبلغ الرسالة. وقد «أنعم عليه السلطان بجائزة سنية، وأعطاه علماً أصفر». وقال له: متى يسر الله ما ذكرت، اجعلوا هذا العلم الأصفر فوق داركم، فالحارة التي أنتم فيها تسلم جميعها في خفارة داركم»<sup>(٤)</sup>.

ومثل ذلك ما يرويه أبوشامة المقدسي أنه، في سنة ٥٧٣ هـ، قرأ بخط شيخه «أبي الفضائل بن رشيق» بمصر، عقيب موته في السنة المذكورة، «قال:

(١) انظر: سنا البرق الشامي / ٢٢٦، الروضتين ٤٦/٢.

(٢) انظر: عيون الأنباء / ٥٨٧ - ٥٨٩.

(٣) انظر: نفسه / ٥٥٨، ٥٩٠.

(٤) انظر: نفسه / ٥٨٨.

رأى إنسان كأن شخصاً ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق»، وهو يقول:  
ملك الصياصي والنواصي ناصرٌ للذين بعد إياسه أن يُنصرا  
وسيفتحُ البيت المقدس بعدما يطوى الطراز له ويقتل قيصرا

يقول أبوشامة: «وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين»، ثم  
يضيف: «وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه، فتح هذا الطراز أولاً، ثم فتح  
البيت المقدس، وكفى بقيصر عن الإبرنس الذي قتله بيده»<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا نتساءل عن التنجيم وما يقوله المنجمون، ومدى الاعتقاد في  
ذلك، وموقف صلاح الدين منه، ولعل ما يذكره أبوشامة المقدسي يجيب عن  
هذا التساؤل، يقول: «وهذا نجابة وافقت إصابة، إن صح أنه قال ذلك قبل  
وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه»، ويقول: «ليس هذا من قبيل علم الحرف،  
ولا من باب الكرامات، لأنها لا تُنال بحساب»<sup>(٢)</sup>.



وفي السنة التي سبقت سنة الفتح، أي في سنة ٥٨٢ هـ، استمر الشعر  
يدعو إلى تحرير مدينة بيت المقدس، ويحث على الجهاد لتحريرها وتحرير  
غيرها من ديار الإسلام المحتلة.

أنشأ العماد الأصفهاني، في السنة المذكورة، قصيدة يمدح بها الملك  
المظفر تقي الدين عمر، وأنشده إياها في الثالث من شهر رمضان، في دمشق.  
ويحث فيها على تحرير بيت المقدس، ويشيد بتقي الدين في جهاده ضد  
الفرنج، ويبين أن الأيوبيين هم الذين سيحررون القدس، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup>:  
وتبيضت وجهه الدين يوم لقيتهم وأبيضكم من أسود القصر أشوس<sup>(٤)</sup>  
وكم كفى الإسلام سوءاً بملككم كفيتم على رغم المعادين كل سو

(١) انظر: الروضتين ١٠٤/٢.

(٢) الدارس ٢٣٢/١.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٨، ٢٣٩، كتاب الروضتين ٧٢/٢.

(٤) أشوس: أشجع.

ولا يفتحُ البيتَ المقدَّسَ غيركم وبیتکم من كلِّ عابِ مُقدَّسٍ  
وما عمرٌ إلا شبيهه سَمِيهٍ شديدُ الأعداءِ ثَبِتَ عَمْرُسُ<sup>(١)</sup>

ويحث الحكيم عبدالمنعم الجلياني على تحقيق تلك الغاية، من خلال قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين، في غرة هذه السنة - ٥٨٢ هـ -، ويركز فيها على الدعوة إلى الجهاد، ورفع شأن الإسلام، واستئصال الشرك وأهله، ويعظم فتح القدس، وتحرير الأقصى، ويصور ذلك الفتح المرتقب بفتح مكة، كما يصور القدس، والأقصى، والصخرة منتظرة صلاح الدين، يقول<sup>(٢)</sup>:

فيا مَلِكًا لم يبقَ للذَّيْنِ غيرِه وَهَتَّ عُمُدُ الإِسْلامِ فاشدَّدْ لها دعما  
إذا صَفَرْتُ من آلِ الاَصْفَرِ ساحةَ الـ مَقْدَسِ ضاهت فتَحَ آمَ القُرَى قدما  
فذا المسجدُ الأقصى وهمتك العُلَى وَعَزَمْتُكَ القُصوى ورَمَيْتُكَ الصمى  
وليس كفتَحِ القُدسِ منيةَ قادرٍ وما أن تلقاها يوسف جزما

ومثل ذلك قوله في قصيدة أخرى أنشأها في السنة ذاتها، وكان قد حضر بين يدي السلطان، وأنشده قصيدته. وفيها يصور القدس وما آلت إليه في ظل الاحتلال الصليبي، ويدعو إلى تحريرها، كما يصور صلاح الدين وأبناءه وقد قدموا من مصر والشام لتحقيق أمنية المسلمين، ويرى أن على العدو أن يرحل عن أرض فلسطين، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup>:

الله أكبر أرضُ القُدسِ قد صَفَرْتُ من آلِ الاَصْفَرِ إذ حين به حانوا  
أسباطُ يوسف من مصر أتوا ولهم من غير تيه بها سلوى وأماناً<sup>(٤)</sup>  
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم عنها وإلا عَدَتْ بيضٌ وخرصانُ  
حتى بنيت رِجاجُ القُدسِ منفرجاً ويصعد الصخرة الغراء عثماناً<sup>(٥)</sup>

(١) عمْرُسُ : قوي شديد.

(٢) كتاب الروضين ١١٦/٢.

(٣) فقه ١١٦/٢.

(٤) أسباط يوسف : يُقصد بهم هنا أولاد السلطان صلاح الدين.

(٥) الرجاج : الباب المغلق، وعليه باب صغير.

والمقصود بـ عثمانة : ابن السلطان صلاح الدين العزيز عثمان.

واستقبلَ الناصرُ المحرابَ يعبدُ مَنْ      قد تمَّ من وعده فتحٌ وإمكانُ  
ومن أحقُّ بملكِ الأرضِ من ملكِ      كأنه ملكٌ في الخلقِ حنانُ

ويصور ابن الساعاتي القدس مستبشرة، بعد النصر في طبرية وحطين في سنة ٥٨٣ هـ، ويشيد بصلاح الدين، ويدعوه إلى الاستمرار في الجهاد، ويصور المقدسات الإسلامية قد رضيت عن صلاح الدين، كما يبدو في قوله (١):

قضيتَ فريضةَ الإسلامِ منها      وصَدَقْتَ الأمانِي والظنوننا  
تهزُّ معاطفَ القدسِ ابتهاجاً      وتُرْضِي عنكَ مكةَ والحجوننا  
فلو أنَّ الجهادَ يطيقُ نطقاً      لنادتكَ ادخلوها آمنيننا  
فألممُ بالسواحلِ فهي صورٌ      إليك وألحقِ الهامَ الممتوننا  
فقلبُ القدسِ مسرورٌ ولولا      سَطَاكَ لكانَ مكتئباً حزينا

ويُذكر أن شاباً مسلماً كان مأسوراً في بيت المقدس، وهو من أهل دمشق، كتب إلى صلاح الدين أبياتاً يدعوه فيها إلى تحرير القدس، يقول (٢):

جاءتُ إليك ظلامَةٌ      تسعى من البيت المُقدَّسِ  
كلُّ المساجدِ طُهَّرتُ      وأنا على شرفي مُنجسِ

تقدم السلطان صلاح الدين يفتح البلاد بعد الانتصار في حطين، وقد استطاع فتحها في فترة قصيرة، ولم تبق إلا القدس، وصور، وطرابلس، بأيدي العدو الصليبي المحتل.

ولم يهاجم صلاح الدين بيت المقدس إلا بعد أن استولى على عسقلان وبيت جبريل، وبعد أن طهر وادي الأردن من العدو المحتل (٣).

(١) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٤٠٦/٢، مفرج الكروب ١٩٨/٢، الروضتين ٨٤/٢، مرآة الزمان ١٥٢/١٤، النجوم الزاهرة ٣٤/٦، شفاء القلوب ١٢٦.

(٢) زبدة كشف الممالك ٢٠، إتحاف الأخصاء المنهاجي السيوطي (خ) ٧٢/١، (ط) ٢٧٤/١، الألس الجليل ٣١٨-٣١٩، أخبار الدول ٤٣٠.

(٣) انظر: النوادر السلطانية ٨٠، الروضتين ٩٣/٢، الفتح القدسي ١١٢، الكامل ٥٤٥/١١ - ٥٤٦، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ١٤٢ - ١٤٣.

وفي شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ، أخذت جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين تقترب من بيت المقدس، وكانت قادمة من الخليل، وعسكر الجيش الإسلامي بالجانب الغربي، ثم رأى السلطان صلاح الدين وقادته أن المكان غير مناسب عسكرياً، فأمر بالانتقال من الجانب الغربي إلى الجانب الشمالي. ويُذكر أن الجيش كان قد نزل بالجانب الغربي في يوم الأحد، الخامس عشر من شهر رجب، وانتقل إلى الجانب الشمالي، في يوم الجمعة، العشرين منه<sup>(١)</sup>.

يذكر ابن شداد أن صلاح الدين سار معتمداً على الله، ومفوضاً أمره إليه، «منتهازاً فرصة فتح باب الحبر الذي حث على انتهازه، إذا فتح، بقوله عليه السلام: «من فتح له باب خير فلينتهره، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه»<sup>(٢)</sup>.

ونصب الجيش الإسلامي المنجنيقات، وضايق بيت المقدس «بالزحف، والقتال، وكثرة الرماة حتى أهدى النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شماليه»، فلما رأى العدو المحتل ما نزل به، و«ظهرت لهم أمارات نصره الحق على الباطل». وعلموا أن سيرهم سيكون كمصير بني جلدتهم في البلدان الإسلامية الأخرى، عمدوا إلى طلب الأمان، فأبى صلاح الدين أولاً، ثم هدد العدو بهدم قبة الصخرة المشرفة، وقتل أسرى المسلمين، وكانوا قرابة خمسة آلاف، فعقد صلاح الدين مجلساً للشورى، ووافق المسلمون على إعطاء الأمان للفرنج، ثم تسلّموا بيت المقدس، يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب<sup>(٣)</sup>.



(١) انظر: النوادر السلطانية / ٨١، الفتح القدسي / ١٢٤، ١٢٥، الروضتين ٩٢/٢، ٩٤، البداية والنهاية

٣٢٣/١٢، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي / ١٤٣، ١٤٤.

(٢) النوادر السلطانية / ٨١، كتاب الروضتين ٩٢/٢.

(٣) النوادر السلطانية / ٨٢، الفتح القدسي / ١٢٨، ١٣٠، كتاب الروضتين ٩٢/٢، ٩٤، ٩٥، ٩٨، البداية

والنهاية ٣٢٣/١٢.

تحدث كثير من الأدباء المسلمين عن الفتح القدسي، وخصوه بعنايتهم، وعبروا إزاءه عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وأحاسيس المسلمين ومشاعرهم، فقد عنى به العماد الأصفهاني في كتابه «الفيح القسي في الفتح القدسي». وتحدث عنه في كتابه «البرق الشامي». وتحدث عنه ابن شداد في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وأبوشامة المقدسي في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين»، والقاضي الفاضل في رسائله في: «من ترسل القاضي الفاضل»، و«الفاضل من كلام القاضي الفاضل»، و«الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم»، وغيرها. كما تحدث عنه العماد الأصفهاني في رسائله ومبشراتة القدسية، وابن الأثير في عدد من رسائله، وابن زكي الدين في خطبته في المسجد الأقصى المبارك، بعد تحريره.

لقد نظر الأدباء إلى هذا الفتح نظرة تعظيم، ويكفي أن نعلم أن العماد الأصفهاني عده هجرة ثانية للتاريخ، بها، فقد بدأ العماد كتابه «الفتح القدسي» بسنة الفتح، وذكر أنه بدأ بالتاريخ به لاستقبال سنة الفتح، وهي سنة ٥٨٣ هـ. ويعلل العماد ما يذهب إليه بأن معنى التواريخ «إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى، فلا أمة من الأمم ذوات الملل، وذوات الدول، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه، ويعولون عليه، ثم ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام»<sup>(١)</sup>.

أرخ المسلمون بالهجرة النبوية، ورأى العماد الأصفهاني في الفتح القدسي هجرة ثانية أرخ بها، وهي «هجرة الإسلام إلى بيت المقدس، وقائمها السلطان صلاح الدين»، ورأى أنه «على عامها يحسن أن يُبنى التاريخ وينسق، وهي وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية، فقد كان انشئ عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية». ويعلل العماد صنيعة هذا بأن الشام قد فتح من قبل، وكان الإسلام قوياً، وأما آنذاك، أي في عهد العماد، فقد فتح «والإسلام قد

(١) انظر: الفتح القدسي / ٤٣ - ٤٤.

وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيباً . وقد عاد غربياً كما بدأ غربياً<sup>(١)</sup> .  
ويصوره، وكأن الدنيا الحامل وصلت إلى تمام شهرها، وجاءت بواحدتها الذي  
تضاف إليه الأعداد، ولذا فهو الهجرة الثانية التي يؤرخ بها في نظره<sup>(٢)</sup> . إن ما  
يذهب إليه العماد الأصفهاني في هذا المجال، يصور عظمة الفتح القدسي في  
نفسه، وفي نفوس المسلمين جميعاً .



ويصور العماد السنة التي فُتح فيها بيت المقدس بأنها «الزمان الذي تقضت  
على انتظار إحسانه الأزمنة، وطُهر فيه المكان المقدس»، بعد أن كان محتقناً  
في ظل الاحتلال الصليبي<sup>(٣)</sup> .

ويصور القاضي الخطيب محيي الدين بن زكي الدين الفتح القدسي فتحاً  
عظيماً، فهو «الفتح الأسنى، والنصر الأهنى»، و«النعمة العظيمة، والمفخرة  
العظيمة». وهو الفتح الذي «فُتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه  
الظلماء»، وابتهج به الملائكة والأنبياء، وتبادل التهاني به أهل الخضراء، أكثر  
مما تبادلها أهل الغبراء، كما يقول ابن الزكي<sup>(٤)</sup> . ويعده الفضيلة الكبرى التي  
شرف الله بها الأمة الإسلامية، «فكأن الله شرف هذه الأمة، وقال لهم: اعزموا  
على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم». كما يعده فتحاً «عظيم القدر، جسيم  
الفخر، فاضل العصر، كامل النصر، ولن يُنسى ذكره إلى يوم الحشر». ويربط  
ابن الزكي بين هذا الفتح العظيم، والفتوح العظيمة التي حدثت في عهد النبوة،  
وعهد الخلفاء الراشدين، مثل معارك بدر، والقادسية، واليرموك، وغيرها. يقول

(١) الفتح القدسي / ٤٩، ٥٠ . وانظر: شفاء القلوب / ١٣٩ .

(٢) الفتح القدسي / ٥٣ .

(٣) انظر: الروضتين / ٧٥/٢ .

(٤) انظر: الروضتين / ١١٠، ١١١ . شفاء القلوب / ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤ . الأعلام الخطيرة - لبنان والأردن

وفلسطين / ٢١١ - ٢٢٠ . وميات الأعيان / ٣ - ٣٦٥ - ٣٧١ ، كثر الدرر (الدر المطلوب) / ٧/٨٧ ، الأنس

الجليل / ١ - ٣٣٢ - ٣٤٠ .

مخاطباً الجيش الإسلامي المنتصر: «فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزيمات الصديقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتكم بها للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيرية، والهجمات الخالدية». ويصور ابن الزكي استرداد بيت المقدس بأنه استرداد للضالة المنشودة التي طالما سعى المسلمون للفوز بها، بعد تخليصها من الأمة الضالة، وردها إلى الإسلام بعد أن بقيت محتلة نحو مائة عام<sup>(١)</sup>.

ويصور القاضي الفاضل الزمان وقد افتخر «بعصر السلطان صلاح الدين في بيت المقدس. وفضل الله أصحاب هذا الفتح بهذه «النصرة القدسية» كما يقول القاضي الفاضل نفسه، والعماد الأصفهاني، وأبوشامة المقدسي<sup>(٢)</sup>.

ويعدّه ابن شداد «فتوحاً عظيماً»، وقد شهده خلق عظيم من أهل العلم، وأرباب الخرق والطرق، ويذكر أنه لما شاع قصده - صلاح الدين - القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور<sup>(٣)</sup>.

لقد كان هذا الفتح أهم فتح ينظر صلاح الدين إلى تحقيقه، يُذكر أنه لما أراد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فتح المغرب، قال له صلاح الدين: «لكن فتح بيت المقدس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوبينا إلى تلك الممالك المراحل». وأبطل تقي الدين العزم على فتح المغرب<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: الروضتين ٢/ ١١٠، ١١١، شفاء القلوب/ ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٢٢، الدر النظيم/ ٨٩، ٩١، الروضتين ٢/ ٩٧، ٩٨، ٩٩، شفاء القلوب/ ١٤٠، ١٤١، صبح الأعشى/ ٦/ ٤٩٧، ٤٩٨.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٨٢، الروضتين ٢/ ٩٢، وفيات الأعيان ٧/ ١٧٩، شفاء القلوب/ ١٢٩، ١٣٨، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٧.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ٧٠.

ولما انتصر المسلمون في طبرية وحطين، وفتحوا الفتوح الكثيرة في عكا، والناصر، وصفورية، وقيسارية، ونابلس، وحيفا، وغيرها بقيادة صلاح الدين، قال العماد الأصفهاني: وبعد هذا «ما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا أو ان فتحه. ولقد دام عليه الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه»<sup>(١)</sup>.

كان فتح بيت المقدس غاية الغايات التي كان المسلمون يرنون إلى تحقيقها، وكانوا مستعدين للتضحية بالنفوس في سبيلها. ومما يُذكر في هذا المجال أن المنجمين قالوا لصلاح الدين: «على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى، وأخذ البلد»<sup>(٢)</sup>.

ويُذكر أنه كانت «كل أفكار صلاح الدين منصبة على بيت المقدس، حيث يقع المسجد الأقصى، ثالث مكان مقدس في الإسلام، والصخرة المشرفة التي عرج منها محمد. ولتكن القدس الثمرة الطيبة لانتصاراته الفذة»، وكان فتح القدس شاغله الأكبر، وقد بلغ منيته بتحرير المسجد الأقصى»<sup>(٣)</sup>.



تردد أصداء الفتح القدسي في الأشعار القدسيات، وتبرز تلك الأصداء جلية في شعر الكثير من الشعراء من أمثال العماد الأصفهاني، وأسامة بن منقذ، والحكيم أبي الفضل عبدالمنعم الجلياني، والرشيد بن بدر النابلسي، وابن الساعاتي، وابن سناء الملك، وسبط بن التعاويذي، وابن جبير، ويوسف بن الحسين بن المجاور، والحسن بن علي الجويني، ومحمد بن أسعد بن علي الجواني، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وأنشأ بعض الشعراء ديواناً خاصاً ببيت المقدس، فقد أنشأ الحكيم عبدالمنعم الجلياني ديواناً سماه «ديوان المبشرات

(١) انظر: الروضتين ٢/ ٨٩، شفاء القلوب / ١٢٤.

(٢) انظر: الروضتين ٢/ ٩٢، شفاء القلوب / ١٢٨.

(٣) انظر: شعلة الإسلام / ١٢٠، سيرة القاهرة - لين بول / ٤٤، ٤٥، الناصر صلاح الدين - عبدالمنعم ماجد / ١٠٣، الناصر صلاح الدين - الدهان / ٦٥، صلاح الدين - الوكيل / ١٦٠، تراث الإسلام - باركر / ٨٣.

والقدسيات»، وديواناً آخر سماه «ديوان التدبير» أو «مناح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في مدى ذكر الملك الناصر صلاح الدين».

لقد كان هذا الفتح الآية العظمى كما يقول ابن الساعاتي مستهلاً قصيدة له أنشأها مادحاً صلاح الدين عند فتحه البيت المقدس<sup>(١)</sup>:

أعيأ وقد عاينتُم الآية العُظمى      لأية حالٍ تَذخُرُ النشْرَ والنَّظْمَا  
وقد ساعَ فتحُ القُدسِ في كلِّ منطِقٍ      وشاعَ إلى أن أسمعَ الأسْلَ الصُّمَّا

وهو الفتح العظيم الحاسم الذي كان المسلمون بانتظاره، كما يقول الرشيد النابلسي<sup>(٢)</sup>:

هذا الذي كانت الآمال تنتظرُ      فليوفِ الله أقوامٌ بما نذروا

وهو فتح ما كان يخطر ببال في ظل أوضاع المسلمين من قبل، ولكنه تحقق بعد توحيد بلاد المسلمين، ووقوفهم صفاً واحداً. وقد سار في جميع الأرجاء، كما يقول العماد الأصفهاني مبشراً الخليفة الناصر بالفتح، في قصيدة أنفذها إليه<sup>(٣)</sup>:

أبشِرْ بفتحِ أمير المؤمنين أتى      وصيتهُ في جميع الأرضِ جَوَابُ  
ما كان يخطرُ في بالٍ تَصُورُهُ      واستُصِيبَ الفتحَ لَمَّا أُغْلِقَ البابُ  
وخامَ عنه الملوكُ الأقدمون وقد      مَضَتْ على الناسِ من بُلُوَاهِ أحقاب

وبهذا الفتح الذي تمناه الملوك، ولم يستطيعوا تحقيقه قبل صلاح الدين، زال الاحتلال الصليبي الذي صوره العماد الأصفهاني داءً معضلاً لم يشف المسلمون منه إلا في سنة الفتح، كما يبدو في قوله من قصيدة قالها يمدح بها الملك الأفضل بن صلاح الدين<sup>(٤)</sup>:

والقُدسُ أَعْضَلُ داؤهُ من قبلكم      فوفيتُمُ بشفاءِ ذاك المعضَلِ

(١) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٥/٢.

(٢) عقد الجمان للعيني / حوادث سنة ٥٨٣ هـ، كتاب الروضتين ١١٨/٢.

(٣) سنا البرق الشامي / ١٧٤، كتاب الروضتين ١٠٢/٢.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٥١، كتاب الروضتين ١٠٧/٢.

دَرَجَ المَلُوكُ عَلى تَمَنِّي فَتَحَهُ      زَمَناً وَغُلَّتْهُمُ بِهِ لَمَّ تُبَلَّلِ  
وَأَتَى زَمَانَكُمْ فَأَمَكْنَ آخِراً      مَا قَد تَعَدَّرَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

ويتردد مثل هذا التصوير في قول ابن الساعاتي مصوراً الاحتلال الصليبي ،  
ومشيداً بالفاتح صلاح الدين<sup>(١)</sup> :

هُوَ مَنقَظُ البَيْتِ المُقَدَّسِ بَعْدَمَا      طَالَتْ فَمَا وَجَدَ الشَّفَاءَ شُكَاةُ  
بَيْتٌ تَأَسَّسَ بِالسُّكُونِ وَإِنَّمَا      عِنْدَ الزَّحَافِ تَحَرَّكَتْ سَكَنَاتُهُ  
وقوله مصوراً ما حل بيت المقدس ، ومبيناً السبيل إلى الخلاص من الداء  
التمثل في الاحتلال الصليبي<sup>(٢)</sup> :

وَمَا كَانَ إِلاَّ الدَّاءُ أَعْيَا دَوَاؤُهُ  
وغيرُ الحَسَامِ العُضْبُ لا يَعْرِفُ الحَسَمَا  
فَقَد أَصْبَحَتْ نُجَلُ العَيُونِ بِأَرْضِهَا      مَخَافَةَ هِنْدِيِّ الطَّبَا تُنْكَرُ السُّقْمَا

★ ★ ★

لقد حار الشعراء في هذا الفتح لعظمته ، وهم لم يحاروا وحدهم ، بل حار  
المسلمون جميعاً فيه ، وفي ذلك سر عظمته . وقد تساءل العديد من الشعراء عن  
الفتح : هل أصبح واقعاً بعد أن كان حلماً؟ وتساءل المسلمون عن مثل ذلك ، ولكن  
الشعراء عبروا عما يدور في أذهانهم ، وفي أذهان المسلمين ، وعبروا عما  
يحسون به ، كما عبروا عما يحس به المسلمون إزاء الفتح . إن هذا التساؤل يعبر  
عما كانوا فيه من يأس يحيط بهم ، فيرون أن قمة أحلامهم المتمثلة في تحرير  
بيت المقدس قد لا تتحقق ، ولكن ذلك الحلم أصبح واقعاً ، بعد أن كان حلماً  
في ظل تفرق المسلمين ، وتنازعهم ، وتخاذلهم ، ومحاربة بعضهم بعضاً ، يقول  
الشريف محمد بن أسعد الجواني<sup>(٣)</sup> :

أَتَرَى مَنَاماً مَا بَعِينِي أُبْصِرُ      القُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ

(١) ديوان ابن الساعاتي ١/٦٤، ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٦ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، ٣٨٨، كتاب الروضتين ٢/١٠٦، الغيث المسجم ٢/٣٣ .

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، تاريخ الخلفاء / ٤١٨، دول الإسلام ٢/٩٥ .

وهكذا يصور الشعراء بل الأدباء عامة الحسرة التي كانوا يحسون بها إزاء تمنيه فتح القدس، وتحريره من المحتل الصليبي. ويبدو أن اليأس بلغ منهم مبلغاً كبيراً إزاء ذلك. وليس ذلك إلا لما كان المسلمون عليه في تحاذلهم، وانقسامهم قبل أن يتم الفتح، وقبل بروز أبطال المسلمين من أمثال عماد الدين زنكي، ونورالدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، فهذا العماد الأصفهاني يصور ذلك بقوله: «قد انقضت الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم»<sup>(١)</sup>.

وقد بدت تلك التمنيات جلية في قول العماد الأصفهاني أيضاً: «ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى، وإقصاء الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتوح مراده - نورالدين -، ومقترح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده»<sup>(٢)</sup>.

وتحققت الآمال التي كانت تراود نفوس المسلمين، وعادت إلى بيت المقدس قدسيته، وعزته، ومكانته السامية، وطهر من الرجس والآثام. وبفتحه حقق «ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً دُلَّ أمس». وفتح الله بيت المقدس الذي عجز الملوك الآخرون عن تمنيه، وهو الفتح «الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك، وتوعد على عزائمهم نهج طريقه المسلوك». وكان فتحه نصراً من الله. يقول العماد الأصفهاني: «دعانا الله لفتح فآحبيناه، ووعدنا بالفوز فآجبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخرنا لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه». ويصور العماد كيف كان المسلمون متشوقين للفتح، متلهفين لتحقيقه، يقول: «فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدمه، وما أظمانا وأظماناه، إلى خصوص الري به وعمومه»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: الفتح القدسي / ١٨١، كتاب الروضتين ٩٧/٢، مرآة الرمان ٣٩٨/٨، شفاء القلوب / ١٣٨.

(٢) كتاب الروضتين ٢١٥/١، وانظر / ١٨١.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٩٤/٢، ٩٧، ٩٨، ٩٩.

ويصور القاضي الفاضل اليأس الذي كان قد حل بالمسلمين، مما جعلهم ينظرون إلى أن الفتح القدسي حلم قد لا يتحقق. ولما تحقق، كاد المسلمون لا يصدقون ما حدث. يقول: «واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم أبقاً، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به على النأي طارقاً»<sup>(١)</sup>.

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الكبرى، السرعة التي تم فيها فتح بيت المقدس، بأنها سر لم يحط المسلمون بحقيقته، يقول<sup>(٢)</sup>:

تَصَاريفُ دَهْرٍ أَعْرَبْتُ لِمَنْ اهْتَدَى      وَسَطَّةُ أَمْرٍ أَعْرَبْتُ مِنْ تَمَرْدَا  
لِسُرْعَةِ فَتْحِ الْقُدْسِ سِرِّ مَغِيَّبٍ      وَفِي صَرْعَةِ الْإِفْرَنْجِ مَعْتَبِرٌ بَدَا  
ويصوره في إحدى قدسياته الأخرى، وكأنه كان في عالم الغيب، وهو ما لا يدركه العالم السفلي. وليس ذلك إلا لعظمة الفتح من ناحية، والتعجب المقرون بالحيرة إزاء ما تم على يد صلاح الدين من ناحية أخرى. يقول<sup>(٣)</sup>:

فِي بَاطِنِ الْغَيْبِ مَا لَا تُدْرِكُ الْفِكْرُ      فَذُو الْبَصِيرَةِ فِي الْأَحْدَاثِ يَعْتَبِرُ  
مَنْ ذَا يَقُولُ لَعَلَّ الْقُدْسَ مُنْفَتِحٌ      إِلَيْكَ بَلْ سِفْرٌ يَعْقُوبُ لَهُ السَّفْرُ

ومن خير ما يمثل الحالة التي كان المسلمون عليها، من فرحة بالفتح، وحيرة إزاءه، قول ابن سناء الملك<sup>(٤)</sup>:

لَسْتُ أَدْرِي بِأَيِّ فَتْحٍ تُهَنَّا      يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَنَّى  
كُلُّ فَتْحٍ يَقُولُ إِنِّي أَوْلَى      وَهُوَ أَوْلَى لِأَنَّهُ كَانَ أَهْنَا

يذكر العماد الأصفهاني أن الرسل قد وردت للتهنئة بالفتح، من بلاد الشام، وخراسان، والعراق، ومنهم رسول صاحب الري، ورسول همذان

(١) الدر التنظيم / ٩٠، رسائل عن الحرب والسلام / ١٧٠، صبح الأعشى ٤٩٧/٦، شفاء القلوب / ١٤١.

(٢) كتاب الروضتين ١١٧/٢.

(٣) نفسه ١١٦/٢.

(٤) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت) / ٨١٣، ٨١٤، (ط مصر) / ٣٤٠، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٩١/٧، شفاء القلوب / ١٥٠، ١٥١.

وأذربيجان، ورسول صاحب بلاد العجم، وغيرهم<sup>(١)</sup>.



يعد الشعراء هذا الفتح فتوحاً، ويعدّه بعضهم من فتوح الأنبياء، كما نجده عند الحسن بن علي الجويني. يقول العماد: «كان فخر الكتاب أبوعلي الحسن بن علي الجويني، المقيم بمصر، من أهل بغداد، ينفذ إليّ قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له هذه القصيدة في الفتح، وهي مشتملة على ذكر ملوك الإسلام، وإهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد سلطاننا، فذكرها»، يقول<sup>(٢)</sup>:

جُنِدَ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَعْوَانُ      مِنْ شَكِّ فِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بُرْهَانُ  
مَتَى رَأَى النَّاسُ مَا نَحْكِيهِ فِي زَمَنِ      وَقَدْ مَضَتْ قَبْلُ أَزْمَانُ وَأَزْمَانُ  
هَذَا الْفَتْحُ فَتُوحُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا      لَهُ سِوَى الشُّكْرِ بِالْأَفْعَالِ أَثْمَانُ

ويذهب الجويني إلى أن هذا الفتح لو تم في عهد نزول القرآن الكريم، لقيلت فيه آيات بينات. وهو يقصد بهذا تعظيم هذا الفتح القدسي، يقول<sup>(٣)</sup>:  
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد تَنَزَّلَتْ فِيهِ آيَاتُ وَقَرَأَنُ  
إنه لمن الواضح أن الشاعر يعظم الفتح تعظيماً كبيراً. ويربط بين هذه المعركة الحاسمة في التاريخ الإسلامي. والمعارك الحاسمة في عصر النبوة. وهذا التعظيم من ناحية، وهذا الربط من ناحية أخرى، يعكسان إحساسات الشاعر بالفتح، وهي إحساسات الفرح الغامر بالخلاص من الاحتلال البغيض.

ومن المعارك التي يربط بينها الشعراء وبين الفتح القدسي، معركة القادسية، فهما معركتان ذواتا شأن كبير في التاريخ الإسلامي، ففي معركة القادسية كان القضاء على أعظم امبراطورية كانت تريد القضاء على الإسلام والمسلمين، وفي معركة بيت المقدس، أو الفتح القدسي، كان التحرير

(١) انظر: الفتح القدسي / ١٣١، الروضتين ٢ / ١٢٠.

(٢) كتاب الروضتين ٢ / ١٠٤.

(٣) نفسه ٢ / ١٠٥.

والخلاص من العدو الصليبي المحتل، وهو عدو استعماري استيطاني كان يحتل بلاد الإسلام والمسلمين، وكان يريد القضاء عليهما، واحتلال أرض الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس، وعلى ذلك، فهما معركتان انتهتا بانتصار الإسلام والمسلمين، وهزيمة أعدائهما، وهما معركتان حاسمتان في التاريخ الإسلامي يفتخر المسلمون بهما في كافة أنحاء العالم الإسلامي. ولذا جاء الربط بينهما أمراً طبيعياً.

ويربط الشعراء بين شخصية الخليفة عمر بن الخطاب الذي أحرز المسلمون الانتصار في القادسية، في عهده، وشخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قاد المسلمين إلى النصر في معركة بيت المقدس، وهو ربط طبيعي بين الشخصيتين اللتين فتحتا بيت المقدس، ففي عهد الخليفة عمر كان الفتح القدسي العمري، وفي عهد السلطان صلاح الدين كان الفتح القدسي الصلاحي، وكلاهما فتح عظيم حقاً.

وتكرر مثل هذه الإشارات التاريخية في هذا الشعر القدسي، وتتمثل في الإشارة إلى الشخصيات الإسلامية البارزة ذات الدور القيادي الحاسم في تاريخ الإسلام والمسلمين، والشعراء في عملهم هذا، ينظرون نظرة إجلال وتقدير إلى تلك الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي، وهي نظرة تمنى فيها الشعراء ظهور شخصيات قيادية في عصرهم مثل تلك الشخصيات القيادية السابقة، لتخليص المسلمين من الاحتلال وتحدياته.

وهم بذلك يستلهمون التاريخ، ويعتبرون به، وبأحداثه، وبأعمال قادته، ويدعون إلى الاعتبار بذلك، والسير على نهجه للوصول إلى التحرير، تحرير المسلمين وبلادهم، وعلى رأسها بيت المقدس.

وهم بذلك يذكرون أعداءهم المحتلين بقيادة المسلمين السابقين، ورموز بطولتهم، ومعاركهم الحاسمة. وفي ذلك تهديد للعدو، وتقرير بأن مصيره سيكون مصير أعداء المسلمين في العصور السابقة، في معارك الإسلام الحاسمة السابقة.

وهم بذلك يربطون بين ماضٍ مجيد، وحاضرٍ مجيد. وإننا لنلمس في ذلك تمجيذاً للسلطان صلاح الدين، كما كان فيه تمجيداً للقادة السابقين.

يقول الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الفتحية الناصرية، نسبة إلى الفتح القدسي من ناحية، والسلطان الناصر صلاح الدين من ناحية أخرى، معبراً عما تقدم الحديث عنه، من ربط بين هذا الفتح الصلاحي، وفتوح القادسية، وبين هذا الفاتح صلاح الدين، والفتح عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup>:  
أما رأيتم فتوح القادسية في أكناف (لوبيّة) تجلّى وذا عمّر  
ويربط ابن الساعاتي بين الخليفة عمر بن الخطاب، والسلطان صلاح الدين مشيداً بكل من الفاتحين، كما يبدو في قوله<sup>(٢)</sup>:

فليت فتى الخطّاب شاهد فتحها فيشهد أن السهم من يوسف أصمى  
وقد أوتي الفتحين مالا وبلدة فلم يسق نصراً ما حواه ولا غنماً  
وقوله<sup>(٣)</sup>:

هو الفاتح البيت المقدس بعدما تحامته سادات الدنيا ومسودها  
فضيلة فتح كان ثاني خليفة من القوم مبيدتها وأنت معيذها

ويربط الحكيم عبدالمنعم الجلياني بين الفاتحين: عمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي، فقد حقق كل منهما النصر في الفتح القدسي. كما يربط بين صلاح الدين وأبي عبيدة، قائد المسلمين في معركة القدس، في عهد عمر بن الخطاب، ويمزج ذلك بتصوير ما كان عليه أهل القدس، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:

أبا المظفر أنت المُجْتَبَى لهدى أخرى الزمان على خُبرٍ بخبرته  
فلوراك وقد حُزّت العلى عمر في قلة التل قضي كُنْه عِبْرته  
ولوراك وأهل القدس في ولّه أبوعبيدة فدّى من مسرته

(١) كتاب الروضتين ١١٧/٢.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٥/٢، كتاب الروضتين ١٠٧/٢.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٧١/٢، ٤١٠/٢، كتاب الروضتين ١٠٧/٢.

(٤) كتاب الروضتين ١٠٣/٢.

ويصور ابن جبير كيف خص الله السلطان صلاح الدين بهذا الفتح، بعد أن خص به الفاروق عمر بن الخطاب، في صدر الإسلام، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:  
لَكُمْ دَخَرَ اللَّهُ هَذَا الْفَتْوَحَ مِنْ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ الْغَابِرِ  
وَخَصَّكَ مِنْ بَعْدِ فَارُوقِهِ بِهَا لِاصْطِنَاعِكَ فِي الْآخِرِ  
لقد كانت حروب صلاح الدين شبيهة بفتوحات المسلمين الأولى، وقد عبر عنها الشعراء المعاصرون له، في القرن السادس الهجري «بصور بارعة تشهد بصدق المقارنة»<sup>(٢)</sup>.

ويصور الشاعر الجلياني أيام الفتح القدسي، في ظل السلطان الفاتح صلاح الدين، بالأيام في عهد الصحابة، رضوان الله عليهم. ويربط بين السلطان الفاتح صلاح الدين والصدّيق أبي بكر، والخليفة عمر بن الخطاب، والملك المظفر تقي الدين عمر، كما يربط بين العزيز عثمان بن صلاح الدين، وعثمان بن عفان، ويربط بين الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وعلي بن أبي طالب، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup>:

دَارَتْ بِكَ الْمَلَةُ الْحُسْنَى فَنَحْنُ عَلِيٌّ      عَهْدِ الصَّحَابَةِ فِي اسْتِمْرَارِ مِلَّتِهِ  
وَأَنْتَ كَاسْمِكَ صَدِيقٌ وَصَاحِبُهُ ال      حَمَلِكُ الْمُظْفَرِ سَامٍ فِي مَبَرَّتِهِ  
وَفِي الثَّلَاثَةِ عُثْمَانُ يُؤَيِّدُهُ      عَلَا عَلِيٌّ عَلَيَّ إِشَارِ نَصْرَتِهِ

وتتردد مثل هذه المعاني في شعر الشريف محمد بن أسعد الجواني، نقيب الأشراف بمصر، كما يبدو في قصيدة قالها في الفتح القدسي. وفيها بصور هذا الفتح فتحاً للرسول محمد ﷺ، ويصور الفاتح بالخلفاء الراشدين في فعالهم، فهو مثل الصدّيق أبي بكر، والفاروق عمر فاتح بيت المقدس، وهو مثل عثمان في نصرة الإسلام، وهو مثل علي في دفاعه عن النبوة، يقول<sup>(٤)</sup>:

(١) الذليل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٥٩٩، رحلة العبدري / ٩٥، كتاب الروضتين ١٠٦/٢.

(٢) الناصر صلاح الدين - الدهان / ٨.

(٣) كتاب الروضتين ١٠٣/٢.

(٤) كتاب الروضتين ١٠٥/٢، تاريخ الخلفاء / ٤١٨.

مَنْ كَانَ هَذَا فَتْحُهُ لِمَحْمَدٍ      ماذا يقال له وماذا يُذَكَّرُ  
يا يوسف الصِّدِّيقَ أَنْتَ لِفَتْحِهَا      فاروقها عمر الإمام الأظْهَرُ  
ولأنتَ عثمانَ الشَّرِيعَةَ بَعْدَهُ      ولأنتَ في نصرِ النُّبُوَّةِ حَيِّدُرُ

ويذكر العماد الأصفهاني، في حوادث سنة ٥٨١ هـ، أن من وصايا السلطان صلاح الدين، بعد نزول مرض ألم به، قوله: «إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد ملياً، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين بن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل»<sup>(١)</sup>.

ويفضل الشعراء هذا الفتح على غيره من الفتوح الأخرى، فهو فتح قد تسامى محلاً، وأثار بلاد الإسلام ضياءً، إنه فتح عظيم حقاً، يفتخر به المسلمون في سائر أنحاء العالم الإسلامي، كما يبدو في قول الرشيد بن بدر النابلسي<sup>(٢)</sup>:

لَا تَرَوِينَ لِفَتْوحِ بَعْدِهَا قِصَصاً      وَإِنْ تَعَاظَمَ مِنْهَا الْخُبْرُ وَالْخَبْرُ  
تَوْضِحَ الدَّهْرُ عَنْ يَوْمِ أَغْرَبَهُ      يُزْهِى وَيَفْتَخِرُ الْأَصَالُ وَالْبُكْرُ  
يَوْمَ تَعَالَى مَحَلًّا وَاسْتَنَارَ سَنًا      فَدُونَ مَرْتَبَتِيهِ الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ  
بِمِثْلِ ذَا الْفَتْحِ لَا وَاللَّهِ مَا حُكِّيتُ      فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَحْبَابٌ وَلَا سِيرُ  
وهو فتح حاسم قضى على ما كان الأعداء المحتلون يكتونه، ويفعلونه، وخلص بيت المقدس مما كان يزرع تحته. وهو فتح كالشمس المنيرة التي تكشف كل ما عداها، إذا ما قورن بالفتوح الأخرى، كما يبدو في قول الشاعر فتیان الشاغوري<sup>(٣)</sup>:

فَلِيَهْنِهِ الْفَتْحُ الَّذِي سُدَّتْ بِهِ      عَنْ مُلْكِهِ أَبْوَابَ غَدْرِ الْأُدْهَرِ  
فَتْحٌ تَطَاطَأَ كُلُّ فَتْحٍ دُونَهُ      وَالشَّمْسُ تَكْسِفُ كُلَّ جِسْمٍ نَبِيرِ

(١) انظر: الروضتين ٦٥/٢.

(٢) انظر: الروضتين ١١٨/٢، عقد الجمال للعيني / حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب / ١٦٦ - ١٦٧.

(٣) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٢.

وقوله مصوراً يوم الفتح وكأنه يوم الحشر، وهو يعبر بذلك عن هوله وعظمته<sup>(١)</sup>:

وَأَرَيْتَهُمْ لِمَا اتَّقَى الْجَمْعَانِ بِالِيَتِ الْمُقَدَّسِ هَوْلَ يَوْمِ الْمُحْشِرِ  
ويبلغ الأمر ببعض الشعراء أن يصوروا الفتح القدسي أعظم من كل  
الفتوحات السابقة واللاحقة، وكأنه «لم يكن منذ عصر الصحابة، رضي الله  
عنهم، له نظير»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا مبالغة إلى حد ما، يقول العماد الأصفهاني<sup>(٣)</sup>:  
مَا كَانَ قَطُّ وَلَا يَكُونُ كَفَتْحِكُمْ لِلْقُدْسِ فِي الْمَاضِي وَلَا الْمُسْتَقْبَلِ  
أَوْجَدْتُمْ مِنْهُ الَّذِي عَدِمَ الْوَرَى وَفَعَلْتُمْ فِي الْفَتْحِ مَا لَمْ يُفْعَلِ  
أَيْدِي الْمُلُوكِ تَقَاصَّرَتْ عَنْ مَفْخَرِ طُلُوتُمْ بِهِ فَبَلَّوْا لِبَعْضِ الْأَنْمَلِ

### ★ ★ ★

ويصور الشعراء الفتح القدسي ملحمة من الملاحم، فهو ملحمة قادها صلاح الدين، ومن أولئك الشعراء فتیان الشاغوري، إذ يصوره ملحمة كتبت بالدماء، وقد كانت السيوفُ المعربُ الفصيحُ فيها، وكانت الرماح الخطُ الذي كتبت به، كما كانت السهامُ ما نقط به ذلك الخط. وكان الحبرُ الذي كتبت به دماً، وأما دفترها الذي كتبت فيه فهو ثرى ديار المسلمين. وكانت تلك الملحمة ذاتَ ألحان طالما تآقت الأذان إلى سماعها، وهي ألحان، تمثلت في سهيل الخيول، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:

أُنشِأتَ مَلْحَمَةً تُمَلُّ مَقَاتِلَ  
إِعْرَابُهَا ضَرْبُ الْحَسَامِ وَنَقْطُهَا  
وَالْحَبْرُ بَحْرٌ تَعَطَّمَتْ مَوْجُهُ  
وَالْبَيْضُ تَنْشُرُ وَهِيَ غَيْرُ خَوَاطِبِ  
وَالْخَيْلُ مَطْرِبَةٌ كَأَنَّ صَهِيلَهَا  
الْفُرْسَانِ بِالْعَدِيدِ الَّذِي لَمْ يُحْصِرِ  
وَقَعُ السَّهَامِ وَخَطُّهَا بِالسَّمْهَرِيِّ  
إِذْ لَيْسَ ثَمَّ سِوَى الثَّرَى مِنْ دَفْتَرِ  
وَالسُّمْرِ نَازِمَةٌ وَإِنْ لَمْ تَشْعُرِ  
شَدْوُ النُّحَيْلَةِ فِي نَسِيبِ الْبَحْتَرِيِّ

(١) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٣.

(٢) كتاب الروضتين / ٩٨/٢.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٥١، كتاب الروضتين / ١٠٧/٢.

(٤) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٢، ١٤٣.

نَشَوِي تَمِيدُ مِنَ السَّرُورِ كَأَنَّمَا  
فَلَقَدْ وَأَذَتْ الشُّرَكَ يَوْمَ لَقِيَتَهُمْ  
وَرَدَدَتْ دِينَ اللَّهِ بَعْدَ قُطُوبِهِ  
وَأَعَدَّتْ مَا أَبَدَاهُ قَبْلَكَ فَاتِحاً  
صَبِحَتْ كُؤُوساً مِنْ شَرَابِ مُسْكِرِ  
وَعَدَوَتْ لِلْإِسْلَامِ عَيْنَ الْمُنْشِرِ  
بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بُوْجِهٍ مُسْفِرِ  
عَمْرَ فَأَنْتَ شَرِيكُهُ فِي الْمَتَجِرِ

وَيَصُورُ الشَّاعِرُ الشَّاعِرِ الشَّاعِرِ صِلَاحِ الدِّينِ رَبِّ المَلاحِمِ، وَهِيَ مَلاحِمِ  
يُفَضِّلُهَا عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَهَا مِنْ مَلاحِمِ، كَمَا يَبْدُو فِي قَوْلِهِ (١):

رَبُّ المَلاحِمِ لَمْ يُؤْرَخْ مِثْلُهَا  
وَيَقْرَنُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ بَيْنَ هَذِهِ المَلاحِمِ الَّتِي قَادَهَا صِلَاحِ الدِّينِ فِي سَبِيلِ  
الإِسْلَامِ وَالمُسلِمِينَ، وَمَا كَانَ فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ مِنْ مَلاحِمِ، كَمَا يَبْدُو فِي قَوْلِ  
الحَكِيمِ عَبْدِ المَنعَمِ الجَلِيلَانِي، فِي قَصِيدَةِ قَدْسِيَةِ مَخَاطَباً صِلَاحِ الدِّينِ (٢):

يَا فَاتِحَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَيَّ بِهِمْ  
أَبْشِرْ بِمُلْكِ كَظْهِرِ الشَّمْسِ مُطَّلَعِ  
حَتَّى يَكُونَ لِهَذَا الدِّينِ مَلْحَمَةً  
وَيُرْبِطُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ بَيْنَ مَلاحِمِ صِلَاحِ الدِّينِ، وَمَلاحِمِ الإِسْكَندَرِ ذِي  
القَرْنَيْنِ، وَيُفَضِّلُونَهَا عَلَى تِلْكَ المَلاحِمِ، وَمِنْهُمْ الشَّاعِرُ الحَكِيمُ عَبْدِ المَنعَمِ  
الجَلِيلَانِي، فِي قَصِيدَتِهِ القَدْسِيَةِ الفَتْحِيَةِ النَّاصِرِيَةِ، يَقُولُ (٣):

هَذَا المَلِيكُ الَّذِي بُشِّرَى النَّبِيِّ بِهِ  
أَنْسَى مَلاحِمَ ذِي القَرْنَيْنِ وَاعْتَرَفَتْ  
أَعْيُنُ إِسْكَندَرَ بِالخَضِرِ وَهُوَ لَهُ  
وَصَنَعَ ذِي العَرَشِ إِبدَاعَ بِلَا سَبَبِ  
فِي فِتْنَةِ البَغْيِ للإِسْلَامِ يَتَنَصَّرُ  
لَهُ السَّرِوَاةُ بِمَا لَمْ يُنْمِهِ أَثْرُ  
عَوْنُ مِنَ اللَّهِ يَسْتَعْنِي بِهِ الخَضِرُ  
فَلَا تَقُلْ كَيْفَ هَذَا الحَادِثُ الخَطِرُ

وَيَبْدُو مِثْلَ ذَلِكَ مَبَالِغاً فِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ الرُّشَيْدِ بْنِ بَدْرِ النَّابِلِيِّ (٤):

أَلَمِّمُ بَدَارِ النَّاصِرِ المَلِكِ الَّذِي  
فِي كَفِّهِ لِلجُودِ سَبْعَةُ أَبْحُرِ

(١) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤١ .

(٢) كتاب الروضتين ١٠٣/٢ .

(٣) نفسه ١١٧/٢ .

(٤) نفسه ١١٨/٢ .

فإذا مَزَرَتْ بِمُلْكِهِ وَفَتَوَّجَهُ فَاسْخَرُ بِمَا يُرَوَى عَنِ الْإِسْكَانْدِرِ

★ ★ ★

وكانت آثار الفتح القدسي عظيمة في نفوس المسلمين، وفي ديار الإسلام كلها، وكانت البشرية كبيرة بهذا الفتح العظيم، كما كان الابتهاج به عظيماً كذلك. وقد صور الأدباء تلك البشرية، وذلك الابتهاج، وبرز جلياً في أشعارهم، ورسائلهم، وخطبهم.

يصور العماد الأصفهاني السلطان صلاح الدين، وقد جلس بمخيمه ظاهر القدس للهناء، وكانت الوجوه سافرة بنور البشر، والعيون تدمع من فرط المسرة، والقلوب خاشعة لفرحها بالنصر، والألسنة تضرع إلى الله مبتهلة مرددة ترانيم الشكر. ولما «تسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، وفدوا للزيارة من كل فج عميق»<sup>(١)</sup>. وسُيِّرَت كتب البُشرى بالفتح، بطلب من السلطان صلاح الدين. يقول: «لما تم الفتح الأكبر، وخص دعم النجاح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط إقبال المسلمين أوزار إديار الكفر بحطين، أمرني السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق»<sup>(٢)</sup>.

وكتب القاضي الفاضل كتباً أخرى تهنئ بالفتح القدسي، وتحدث عن آثاره في مختلف المجالات.

كان أثر الفتح القدسي أثراً عظيماً في نفوس المسلمين، فقد عاد الحق إلى نصابه، وزهق الباطل، وعاد الايمان إلى وطنه بعد أن كان غريباً في ظل الاحتلال الصليبي. وكانت سعادة المسلمين غامرة بذلك، فقد ذُكر أن السلطان صلاح الدين قال: «إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس، فما أسعدنا، وأي يد له عندنا إذا أيدنا»<sup>(٣)</sup>. ويصور العماد كيف «تهلل وجه السعد بنضارة البيت المقدس، وزادت الوجوه بشراً»، يقول: وكان ذلك الفتح «بشرى تجلو الوجوه ببشرها، وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويغرف أهل الشرق

(١) انظر: الروضتين ٩٦/٢.

(٢) انظر: الفتح القدسي / ١٨٣.

(٣) انظر: الروضتين ٩٤/٢.

والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها، عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى ﴿بَارِكْنَا حَوْلَهُ﴾ عُرِفَتْ، وظهرت الصخرة المقدسة وطُهرت... ، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه»<sup>(١)</sup>.

لقد كان هذا الفتح ذا أثر كبير في الإسلام والمسلمين، فيه «صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها، واستتببت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه». كما يقول القاضي الفاضل. ويصور أثره وقد أصبحت الأرض المقدسة طاهرة، وكانت طامناً في ظل الاحتلال الصليبي<sup>(٢)</sup>.

وتتردد تلك البشائر بالفتح في أدب أدباء المسلمين، فقد تحدثوا عن الآثار التي نجمت عنه دينياً، وسياسياً، ونفسياً، وفكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وعمرانياً. ويصور العماد الأصفهاني تلك الآثار في قول مجمل يشير فيه إلى آثار الفتح في مجالاتها المختلفة، يقول: «... وتلي التنزيل، وحق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان، وصُفَّت السجادات، وصُفَّت العبادات، وأقيمت الصلوات... ، وأعليت الرايات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس... ، وعاد الايمان الغريب إلى وطنه... ، وورد القراء، وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد، والعباد، والأبدال، والأوتاد... ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدثت الرواة، وروى المحدِّثون... ، ولخص المفسرون... ، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، والمتوشحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة»<sup>(٣)</sup>. ومن هذا النص يتبين الأثر جلياً في مجال إقامة الشعائر الدينية

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٨، ٩٩.

(٢) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٨، ١٦٩، الدر النظيم/ ١٧، ٢١، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، ١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، شفاء القلوب/ ١٤١، ١٤٣.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ١٣٨، الروضتين ٢/١٠٨، ١٠٩.

كما كان الحال قبل الاحتلال، كما يتبين في مجال الحياة الفكرية، وعقد مجالس الوعظ، والمجالس الأدبية والعلمية، والمناظرات، وما إلى ذلك.

لقد عُني الشعراء بالحديث عن أثر الفتح دينياً، كما عنوا بآثاره السياسية، فإن أشعارهم القدسية تعد لوناً من ألوان الشعر السياسي الذي يصور الحرب بين المسلمين وعدوهم الصليبي المحتل. وهو لون من الشعر الذي عني به المجتمع المسلم صاحب الحق والأرض، في فترة الحروب الصليبية.

يركز الشعراء المسلمون في قدسياتهم على الحديث عن عودة الايمان إلى وطنه، وإقامة أحكام الله فيه، وإعلان شعائره، وتطهير بيت المقدس من رجس الاحتلال، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، مهنتاً السلطان بفتح القدس، وهو مخيم عليه<sup>(١)</sup>:

وَطَهَّرْتَهُ مِنْ رِجْسِهِمْ بِدِمَائِهِمْ

فَأَذْهَبْتَ بِالرَّجْسِ الَّذِي ذَهَبَ الرَّجْسَا

نَزَعْتَ لِبَاسَ الْكُفْرِ عَنْ قُدْسِ أَرْضِهَا      وَالْبَسْتَهَا الدِّينَ الَّذِي كَشَفَ اللَّبْسَا  
وَعَادَتْ بَيْتَ اللَّهِ أَحْكَامُ دِينِهِ      فَلَا بَطْرَكَأُ أَبْقِيَتْ فِيهَا وَلَا قَسَا  
وَقَدْ شَاعَ فِي الْأَفَاقِ عَنْكَ بَشَارَةٌ      بَأَنَّ أَذَانَ اللَّهِ قَدْ أَبْطَلَ النُّقْسَا  
ويصور العماد هذا النصر حياة للهدى والايمان، وموتاً للكفر، وقمع

طواغيته، يقول مخاطباً صلاح الدين، مشيداً به<sup>(٢)</sup>:

وَجَاءَ عَصْرُكَ وَالْأَيَّامُ مَقْبِلَةٌ      فَكَانَ فِيهِ لَفِيضِ الْكُفْرِ إِنْضَابُ  
نَصْرٌ أَعَادَ صِلَاحَ الدِّينِ رَوْنَقُهُ      إِجْزَاؤُهُ بِبَلِيغِ الْقَوْلِ إِسْهَابُ  
أَحْيَا الْهَدَى وَأَمَاتَ الشُّرْكَ صَارْمُهُ      لَقَدْ تَجَلَّى الْهَدَى وَالشُّرْكَ مِنْجَابُ  
بِفَتْحِهِ الْقُدْسَ لِلْإِسْلَامِ قَدْ فَتَحَتْ      فِي قَمْعِ طَاغِيَةِ الْإِشْرَاقِ أَبْوَابُ

ومثل ذلك قول الحكيم عبدالمنعم الجلياني<sup>(٣)</sup>:

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٣٢، كتاب الروضتين ١٠٢/٢، عقد الجمان للعيني ٢٥ / حوادث سنة

٥٨٣ هـ، معجم الأدباء، ٢٧/١٩، شفاء القلوب / ١٥٠.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٧٥، سنا البرق الشامي / ١٧٤، كتاب الروضتين ١٠٢/٢.

(٣) كتاب الروضتين ١٠٣/٢.

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه وبيات يطوى العدى في سدّ ثغرتِه  
وقول الحسن بن علي الجويني مصوراً أثر الفتح، ومشيداً بصاحبه<sup>(١)</sup>:  
وهذه سنة أكرم بها سنة فالكفر في سنة والنصر يقظان

ويصور ابن سناء الملك تخلص الإسلام مما كان يرزح تحته في ظل  
الاحتلال الصليبي، وعودة الحياة إليه، يقول مخاطباً صلاح الدين، مشيداً  
به<sup>(٢)</sup>:

إنّ دين الإسلام منّ على الخلد وأنت السذي على الدّين منّا  
أنت أحييته وقد كان ميتاً ثم أعتقته وقد كان قنّاً

ويصور ابن جبير الفتح القدسي ثاراً لدين الإسلام من أعدائه الصليبيين  
المحتلين الذين أرادوا استئصاله من جذوره، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح  
الدين<sup>(٣)</sup>:

ثارت لدين الهدى في العدا فأثرك الله من نائر  
فتحت المقدّس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر  
وجئت إلى قدسه المُرْتَضَى فخلصته من يد الكافر  
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائر

وما أجمل الأبيات التي يصور فيها الرشيد بن بدر النابلسي آثار الفتح  
القدسي في نفوس المسلمين، فقد هدأت تلك النفوس واستقرت بعد أن ارتفع  
علم الايمان عالياً فوق المسجد الأقصى، وعادت حرية العبادة إلى سالف  
عهدا قبل الاحتلال، وأصبح البيت المقدس قبلة للمسلمين يقصدونه من كل  
حذب وصوب، وزالت آثار الشرك وأهله المحتلين، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:

(١) كتاب الروضتين ١٠٥/٢.

(٢) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت) / ٨١٤، (ط مصر) / ٣٤٠.

(٣) الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٥٩٩، رحلة العبدري / ٩٤، ٩٥، كتاب الروضتين

١٠٦/٢.

(٤) عقود الجمان للعيني ٢٥/حوادث سنة ٥٨٣ هـ، كتاب الروضتين ١١٨/٢، شفاء القلوب / ١٦٦، ١٦٧.

الآن قَرَّتْ جُنُوبٌ فِي مِضَاجِعِهَا      وَنَامَ مَنْ لَمْ يَزَلْ حِلْفًا لَهُ السَّهْرُ  
الآن طاب إلى البيت المقدس كالـ      بيت المحرم إحرام ومعتمر  
يا بهجة القدس أن أضحى به علم الـ      إيمان من بعد طي وهو منتشر  
يا نور مسجده الأقصى وقد رُفِعَتْ      بعد الصليب به الآيات والسُورُ  
الله أكبر صوتٌ تَقَشَعْرُ لَهُ      شَمُّ الذَّرَى وَتَكَادُ الأَرْضُ تَنْفَطِرُ

وَيَصُورُ ابْنَ السَّاعَاتِي آثارَ الفَتْحِ القُدْسِيِّ عِنْدَ المُسْلِمِينَ وَاعْدَائِهِمْ، وَهِيَ  
آثارٌ تَبْدُو مُتَضَادَّةً، فَقَدْ نَجَمَتْ عَنْهُ آثارٌ سَرَتْ المُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّهَا سَاءَتْ الأَعْدَاءَ  
الصُّلَيْبِيِّينَ المُحْتَلِينَ، كَمَا يَبْدُو فِي قَوْلِهِ (١):

تَحَلُّ بِه الأَضْدَادُ وَاللَّفْظُ وَاحِدٌ      فَكَمْ سَرَّ قَلْبًا فِي الأَنَامِ وَكَمْ عَمَّا  
وَتَنَدَى مِغَانِيهِ وَمَا جَادَهَا الحَيَا      وَلَا سَحَبَتْ رِيحُ الصَّبَا فَوْقَهَا كُمَّا



لَقَدْ كَانَ هَذَا الفَتْحُ القُدْسِيُّ نَصْرًا مِنْ عِنْدِ اللهِ، عِزُّ شَأْنِهِ وَعِلا، وَليست هذه  
الفكرة جديدة في فترة الحروب الصليبية، وهي فكرة تتردد في الشعر العربي منذ  
صدر الإسلام. وقد جاءت هذه الفكرة مرتبطة بالعقيدة الإسلامية، وما جاء في  
كتابها السماوي العظيم، مبيناً أن نصر المسلمين نصر من عند الله.

وتتردد هذه الفكرة في الأشعار القدسيات، ومن ذلك ما يقوله الحكيم  
عبد المنعم الجلياني، في قصيدته الفتحية الناصرية (٢):

وَأَنْجَزَ اللهُ لِلسُّلْطَانِ موعِدَهُ      وَنَذَرَهُ فِي كَفُورِ دِينِهِ السُّبْطُ  
وَيَعِدُ الجُليَانِي هَذَا النُّصْرَ مُعْجِزًا مِنْ نَاحِيَةٍ، كَمَا يَعِدُهُ مُخْلِداً لِلْفَاتِحِ صَلَاحِ  
الدِّينِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، كَمَا يَبْدُو فِي قَوْلِهِ (٣):

أَرَى اللهُ فِيهِ مُعْجِزَ النُّصْرِ مُخْلِصًا      لِأَمْرِ صَلَاحِ الدِّينِ فِي النَّاسِ مُخْلِداً

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٣) نمسه ٢/١١٨.

وهو النصر الذي وعد الله به رسوله . وعلى المسلمين أن يتوجهوا إلى خالقهم بالشكر، كما يبدو في قول محمد بن أسعد الحلبي المعروف بالجواني<sup>(١)</sup>:

قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي وَعَدَ الرسولُ فسبحوا واستغفروا ويتحدث الشعر عن مشاركة جند السماء في هذا الفتح القدسي ، ومن ذلك ما يبدو في قول الحسن بن علي الجويني<sup>(٢)</sup>:

جندُ السَّماءِ لهذا المَلِكِ أعوانٌ من شَكِّ فيهم فهذا الفتح بُرهانٌ

ويصور القاضي الخطيب محيي الدين بن الزكي التوجه بالشكر إلى الله لما منحه من النصر العزيز، ويبدو جلياً في استهلال خطبته التي ألقاها في المسجد الأقصى بعد تحريره، بالشكر والتحميدات، وقد أطال في تحميداته، واستهلها بالفاتحة، واقتبس آيات قرآنية كريمة في مجال التحميد. ولم يقتصر على ذلك، فقد أورد تحميدات أخرى تناسب المقام الذي كان يتحدث فيه<sup>(٣)</sup>. وقد كان المقام يستدعي الحمد حقاً، بعد أن طال أسر بيت المقدس، وأقصاه، وصخرته، وبعد أن يش المسلمون من تحرير الأرض المقدسة من المحتل الصليبي .



ويصور الأدباء الفتح وقد عجزت الألسن عن إعطائه حقه لعظمته، فمهما دبجت الأشعار، والرسائل، والخطب، فإنها لن تستطيع إعطائه حقه، كل ذلك على الرغم مما قيل من أشعار قدسيات، ورسائل مبشرات وقدسيات، وخطب قدسيات. ويقر الشعراء، والكتّاب، والخطباء بعجزهم عن ذلك، فالعماد الأصفهاني يعده فتح الفتوح، ويصوره بأنه «قد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً»<sup>(٤)</sup>. ويصوره القاضي الفاضل «منقبة لا يبلغ إلى وصفها بلاغة موجزة

(١) كتاب الروضتين ١٠٥/٢، دول الإسلام ٩٥/٢، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.

(٢) كتاب الروضتين ١٠٤/٢، وانظر ص ٥٠ من هذا البحث.

(٣) نفسه ١١٠/٢، ١١١.

(٤) نفسه ٩٧/٢.

ولا مسهبة»<sup>(١)</sup> كما يصوره بحراً «للأقلام فيه سجع طويل»<sup>(٢)</sup>.

وتتردد أصداء هذه الفكرة في الشعر في فترة الحروب الصليبية، وهي فكرة تتردد في شعر الحروب في العصر العباسي، عند أبي تمام، والبحري، وأبي الطيب المتنبي. وتمثل هذه الفكرة تعظيماً للفتح الذي يتحدثون عنه، ويتغنون به. لقد وصف الرشيد بن بدر النابلسي الفتح القدسي فتحاً يجعل عن قول كل أديب، كما يبدو في قوله معظماً للفتح القدسي<sup>(٣)</sup>:

تجلُّ عليه عن مدحٍ يُحيط به      وصفٌ وإن نظمَ المُدَّاحُ أو نثروا  
يا نعمةً كبرتْ عند الأنام له      قدراً ففي كلِّ شكرٍ عندها صغر  
لا تروين لفتوحٍ بعدها قصصاً      وإن تعاضمَ منها الخُبرُ والخُبرُ

ويعد العماد الأصفهاني القول البليغ في الفتح القدسي إسهاباً، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:

نصرٌ أعاد صلاحُ الدِّين رونقه      إيجازه يبلِّغ القول إسهابُ



وتصور الأشعار القدسيات الرباط المقدس بين الأماكن المقدسة في فلسطين والحجاز، الأقصى المبارك، والصخرة المشرفة، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، فالمسجد الحرام، والمسجد النبوي يتلقيان البشري بخلاص المسجد الأقصى وتحريره، وإعادة إقامة الشعائر الإسلامية فيه، وعودة علم الايمان مرفراً فوق أعاليه. والحجر الأسود يتلقى التهاني بخلاص الصخرة المشرفة وتحريرها.

يصور القاضي الفاضل الحجر الأسود يهنئ الصخرة المشرفة بخلاصها

(١) كتاب الروضتين ١٩٩/٢.

(٢) رسائل عن الحرب والسلام / ١٦٨، الدر النظيم / ١٧، وفيات الأعيان ١٨٠/٧، صبح الأعشى ٤٩٧/٦.

(٣) عقد الجمال / حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب / ١٦٦.

(٤) سنا البرق الشامي / ١٧٤، كتاب الروضتين ١٠٢/٢.

وتحريرها، وبت عصمتها من العدو الصليبي حرباً<sup>(١)</sup>.

ويصور العماد الأصفهاني المسجد الأقصى أحياناً للمسجد الحرام، يقول: «فما أسّر البيت الحرام بفكاك أخيه من الأسر، وإجراء الإسلام فيه، لغسل أوضار الكفر»، وقد «عاد المسجد الأقصى إلى مدانة المسجد الحرام»<sup>(٢)</sup>.

وبعد الفتح القدسي، أحرم المسلمون من البيت المقدس إلى البيت العتيق، كما كانوا يحرمون منه قبل الاحتلال الصليبي أيضاً.

إن الرباط السماوي، والرباط الأرضي، بين الأماكن المقدسة في بيت المقدس، والأماكن المقدسة في بلاد الإسلام، يتمثل في تصوير بيت المقدس بأنه «المسجد الأقصى، المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار الأبدال، وملائكة السماء...»، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر<sup>(٣)</sup>. وفيه الصخرة المشرفة والأقصى المبارك. وهو أولى القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين، وإليه تشد الرحال، وهو «منزل الوحي، بمحل الإسراء، ومقر سيد المرسلين، وخاتم النبيين بمقام الرسل والأنبياء...»، وأدام أهل الإسلام بشرف بيته مستمعين<sup>(٤)</sup>.

ويصور الأدب الاستجابة لنداءات الصخرة المشرفة التي طالما استصرخت بالمسلمين، فلبى صلاح السدين نداءاتها واستصراخها، يقول العماد الأصفهاني: «وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيب دعوتها، وأصببت حظوتها...»، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني<sup>(٥)</sup>. ويصور أثر تخليصها مما كان يلحق بها في ظل الاحتلال، وتعلق نفوس المسلمين بها فيقول: «ولقد غُسلت من أردان الكفر وأدناسه، وطُهرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون التي قذبت، وصقلت بشفاه المؤمنين، وطالما

(١) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، الدر النظيم/ ١٨، وفيات الأعيان/ ٧/ ١٨٠، صبح الأعشى/ ٦/ ٤٩٧.

(٢) انظر: الروضتين/ ٢/ ٩٨، ٩٩.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ١٢٢، الروضتين/ ٢/ ٩٤.

(٤) كتاب الروضتين/ ٢/ ٩٦.

(٥) نفسه/ ٢/ ٩٧.

بأيدي الشرك صديت، وأُعيد إليها ذكر الله بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها في عهد الصحابة، رضي الله عنهم، من حسن الصحبة»<sup>(١)</sup>.

وما أجمل الصورة التي يصور العماد بها الصخرة المشرفة وحينها، كما يبدو في قوله: «وحتت الصخرة حين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج، ونضوب ما كان نبع من الأجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا. . .» كما يقول<sup>(٢)</sup>.

لقد تردد صدى تخليص الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك، من الاحتلال الصليبي في الأعمال الأدبية، وتردد صدى تعلق المسلمين بهما في بلاد الإسلام، فالقاضي الفاضل يصور كيف خفقت أعلام المسلمين فوق الأقصى، والتقت قُبُلهم على الصخرة، وقد أحسوا بالنشوة بالنصر، يقول: «واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قُبُلهم، وشُفيت بها وإن كانت صخرة كما تُشفى بالماء غُللهم»<sup>(٣)</sup>.

لقد بدا الرباط جلياً بين الأماكن المقدسة في ديار الإسلام، وهو رباط سماوي، ورباط أرضي، ويعود ذلك إلى القدسية التي تتحلى بها الأماكن المقدسة لدى المسلمين، كما تقدم.

يصور الشعر بيت المقدس أرض المحشر، ومن ذلك ما يبدو في قول محمد بن أسعد الحلبي المعروف بالجواني، من قصيدة قالها بمناسبة الفتح القدسي<sup>(٤)</sup>:

فُتِحَ الشَّامَ وَظَهَرَ الْقُدْسُ الَّذِي هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنْامِ الْمَحْشَرُ

(١) كتاب الروضتين ٢/٩٨، ٩٩.

(٢) نظرون: نفسه ٢/٩٧، ٩٩.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، الدر النظيم/ ١٨، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، صبح الأعشى ٦/٤٩٧،

٤٩٨.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

وتبدو هذه القدسية جلية في قول ابن جبير من قصيدة قالها مشيداً بالسلطان صلاح الدين، كما تقدم في قوله «فتحت المقدس من أرضه...» (١) :

ويربط الشعراء بين البيت المقدس والبيت الحرام، ويصورون قدسية كليهما، ويربطون بين الصخرة المشرفة والحجر الأسود، كما يربطون بين تخليص البيت المقدس وتحريره من الاحتلال الصليبي، وبين البيت الحرام وتخليصه من الأوثان وعبادتها، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، من قصيدة أنفذها إلى الخليفة الناصر بمناسبة الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ (٢) :

ففي موافقة البيت المقدس لد بيت الحرام لناتية وإعجاب  
والصخر والحجر المثلثوم جانبه كلاهما لاعتمار الخلق محراب  
نقى من القدس صلباناً كما نُفيت من بيت مكة أزلماً وأنصاب

ويصور ابن الساعاتي ما أحست به مكة والمدينة بالفتح القدسي، كما يصور الضريح النبوي جذلاً بالفتح، يقول (٣) :

حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب وأطرب ذباك الضريح وما ضما

وتتردد مثل هذه المعاني الدينية في قصيدة أخرى لابن الساعاتي يشيد فيها بصلاح الدين، ويصور ما شعر به البيت العتيق إزاء الفتح القدسي، وما شعرت به مدينة الرسول، ﷺ، كما يبدو في قوله (٤) :

أحسنت بالبيت العتيق ويثرب ولك الفعال كثيرة حسنة  
هذي سيوفك محرمات دونه لبكائهن تبسمت حجراته

وبهذا الفتح القدسي جمع السلطان صلاح الدين بين الصخرة المشرفة، وبين مواضع المناسك ومشاعرها في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، كما يبدو في قول الشاعر فتيان الشاغوري، من قصيدة يمدح بها السلطان، «ويذكر ما

(١) كتاب الروضتين ١٠٦/٢. وانظر ص ٦٠ من هذا البحث.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٧٥، ٧٦، كتاب الروضتين ١٠٢/٢، ١٠٣، سنا البرق الشامي / ١٧٤.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٤١٠/٢، كتاب الروضتين ١٠٦/٢.

منحه الله من الفتح المبين، والنصر العزيز»، بمناسبة الفتح القدسي<sup>(١)</sup>:  
ورددت دين الله بعد قطوبه بالمسجد الأقصى بوجه مُسْفِرٍ  
حتى جمعت لمعشر الإسلام بين الصخرة العظمى وبين المشعر  
فكأنه إنسان عين صورة يلقاك أسوده بمعنى أنور

\*\*\*

وكان من آثار الفتح القدسي فكراً أن عاد المسجد الأقصى إلى أداء دوره  
في الحياة الفكرية، وذلك كما فصلت القول فيه في كتابي «الحركة الفكرية في  
ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي»<sup>(٢)</sup>. وأنشئت  
المدارس، والزوايا، والخوانق، والرباطات. وقد قامت بأداء دورها في الحركة  
الفكرية في بيت المقدس، وذلك كما فصلت القول فيه أيضاً في كتابي  
«المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، دورها في  
الحركة الفكرية»<sup>(٣)</sup>.

يصور العماد الأصفهاني المسجد الأقصى وقد أقصي منه الصليبيون  
المحتلون، و«سكن العلماء والفقهاء» مكانهم الذي كانوا يحتلون. يقول:  
«وُدُّرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضل هذا  
المطلب»<sup>(٤)</sup>. يُضاف إلى هذا ما تقدم من تصويره للحركة الفكرية في بيت  
المقدس بعد الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ.

وفي حديثه عن «وصف الصخرة المعظمة»، يصور كيف «رتب السلطان في  
قبة الصخرة إماماً من أحسن القراء تلاوة...، وأعرفهم بالقراءات السبع بل  
العشر». كما يصور بعض مجالس صلاح الدين مع العلماء والأئقياء في بيت  
المقدس، وإنشاء المدرسة الصلاحية وغيرها من المدارس هناك. ومما يصور  
هذا الأثر في المجالس الفكرية قول العماد: «... فما ترى إلا قارناً باللسان

(١) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٣، كتاب الروضتين ١١٩/٢.

(٢) انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(٣) انظر المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(٤) كتاب الروضتين ٩٨/٢، ٩٩.

الفصيح ، وراوياً للكتاب الصحيح ، ومتكلماً في مسألة ، ومتفحصاً عن مشكلة ، وموردأً لحديث نبوي ، وذاكراً لحكم مذهبي ، وسائلاً عن لفظ لغوي ، ومعنى نحوي ، أو مُقرضاً بقريض . . .» (١).

### ★ ★ ★

ويصور الشعر تحرير بيت المقدس ، وغيرها من بلاد الإسلام ، عامل أمن واستقرار . ومن ذلك ما نجده في شعر ابن الساعاتي ، إذ يتحدث عما نجم عن الفتح القدسي من نشر للأمن ، يقول من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين ، عند فتح القدس ، في سنة ٥٨٣ هـ (٢) :

لقد سَكُنُ الدهياءُ أمناً وغبطةً      فهل كان لفظاً ساراً أو عسكرياً دُهماً

ويتحدث الأدب عن إلغاء المكوس ، وقد كان الغاؤها عاملاً مشجعاً للمشتغلين بالتجارة . يشير العماد الأصفهاني إلى إطلاق صلاح الدين المكوس ، كما يبدو في قصيدة قدسية قالها مهتماً بفتح القدس ، وكان صلاح الدين مخيماً هناك ، وفيها يصور بعض ما لحق بالعدو الصليبي إثر الفتح القدسي (٣)

فكيف مكَّست المشركين رؤوسَهُمْ      ودأبُك في الإحسان أن تُطلق المكسَا

وكان العماد نفسه قد تحدث في حوادث سنة ٥٧٤ هـ ، عما أسقطه السلطان صلاح الدين من «مكس مكة عن الحاج» ، وقد اغتبطت النفوس بذلك (٤) . ويصور القاضي الفاضل أثر ذلك في النفوس أيضاً ، ويربط بين صنيع صلاح الدين والحديث عن بيت المقدس وتحريره من الاحتلال الصليبي . ويبدو ذلك جلياً في حديثه عن «انقطاع المكاسين عن جدة ، وعن بقية السواحل» ، ثم يقول مخاطباً صلاح الدين : «وغير خافٍ عن مولانا همة الفرنج

(١) الفتح القدسي / ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥١ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢ / ٣٨٥ ، الغيث المسجم ٢ / ٣٣ .

(٣) كتاب الروضتين ٢ / ١٣ .

(٤) كتاب الروضتين ٢ / ٣ ، النجوم الزاهرة ٦ / ٢٧٨ ، شفاء القلوب / ٩٣ .

بالقدس براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وسلماً وحرماً، وبعداً وقرباً، وتوافيهم على حماسة، وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونُصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال»<sup>(١)</sup> كما تقدم .

ويتحدث ابن جبير عن صنيع صلاح الدين هذا، يشيد به، ويعد صنيعه من المفآخر «المُزلفة من الله تعالى». وفي هذا يقول شعراً من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين<sup>(٢)</sup>:

رفعت مغارم مكس الحجا ز بإنعامك الشامل الغامِر  
وأمنت أكناف تلك البلا د فهان السبيل على العابِر  
وسحبُ أياديك فياضةً على وارِدٍ وعلى صادرِ  
فكس لك بالشرق من حامدٍ وكس لك بالغرب من شاكرِ

ويتحدث ابن جبير في قصيدته هذه عن الزكاة، وما قد يلحق من مخالفة في تطبيق هذا الواجب على المسلم، يقول<sup>(٣)</sup>:

ألا ناصحٌ مُبلغٌ نُصحُه إلى الملك الناصر الظافرِ  
ظلم تَضَمَّنَ مَالَ الزكا ة لقد تَعَسَّتْ صفقةُ الخاسرِ  
يُسِرُّ الخيانة في باطنِ ويبيد النصيحة في الظاهرِ  
فأوقع به حادثاً إنه يُقْبَحُ أحدوثةُ الذاكِرِ  
فما للمناكير من زاجرِ سواك وبالعرف من أمرِ  
وحاشاك إن لم تُزل رسمها فمالك في الناس من عاذِرِ  
ورفعك أمثالها موسع رداء فخارك للناسِرِ

(١) الظفر: الروضتين ٣/١، ٤.

(٢) الذيل: التكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٦٠٠، رحلة العبدري / ٩٥، كتاب الروضتين ٤/٢، نبع الطيب ٣٨٣/٢.

(٣) الذيل: التكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٦٠١، رحلة العبدري / ٩٥، ٩٦، كتاب الروضتين ٤/٢.

## صورة فاتح بيت المقدس

لقد أصبح ذكر صلاح الدين الأيوبي خالداً بتحريره بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ، من الاحتلال الصليبي . ويتمثل ذلك في مظاهر ومجالات عديدة، ومن أهمها الصدى المتمثل فيما صُنّف حول سيرته وجهاده من المصنفات، وما أنشئ من الرسائل والخطب، وما أنشد من الشعر الكثير، من مبشرات وقرديات .

لقد صنفت مصنفات عديدة حول سيرة صلاح الدين وجهاده، ومن أهمها ما صنّفه معاصره القاضي بهاء الدين يوسف بن شداد، وهو كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» . ومثله معاصره العماد الأصفهاني في كتابه «الفيح القسي في الفتح القدسي» . وكتابه «البرق الشامي»، ففي أولهما يتحدث عن جهاده بين سنتي ٥٨٣ هـ و ٥٨٩ هـ . وبعد ثانيهما تاريخاً لصلاح الدين . ومنها كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي . وفيه يتحدث عن الدولتين الزنكية، والصلاحية . ومنها كتاب «السيرة الصلاحية» ليحيى بن أبي طي الحلبي، وهو كتاب لم يصل إلينا . وصنفت كتب خاصة في سيرته، وسيرة أهل بيته عامة، ومنها: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي، و«ترويح القلوب في أخبار بني أيوب» للمرتضى الزبيدي، و«شفاء القلوب» في مناقب بني أيوب لأحمد بن ابراهيم العسقلاني الحنبلي، و«أخبار الأيوبيين» للمكين جرجيس بن العميد، و«الدر المطلوب في أخبار بني أيوب» لعبدالله بن أيبك الدوادار .

وسأركز في تبين صورة الفاتح على الأشعار القدسيات، والرسائل القدسيات والخطبة القدسية دون غيرها . وإذا ما استشهدت بما ورد في المصادر التاريخية، فليس ذلك إلا للتحقق مما ورد في الشعر، والرسائل، والخطبة، حرك صورة صلاح الدين، والموازنة بين ما ورد في الشعر، وما ورد في التاريخ .

أنشئت رسائل قدسية كثيرة حول الفتح القدسي، وقد تحدثت عن الفاتح،

ومنها رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير.

وأما الخطب القدسية، فقد كان من المتوقع أن تكون كثيرة، ولكنه لم يصل إلينا منها سوى خطبة واحدة للقاضي ابن الزكي، في سنة ٥٨٣ هـ.

وفي مجال الشعر، تغنى الشعراء بالانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدين، وعلى رأسها فتح بيت المقدس. ومن أولئك الشعراء العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وعبد المنعم الجلياني، والرشيدي بن بدر النابلسي، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وتجدر الإشارة إلى أن الجلياني أنشأ دواوين شعرية خاصة ببيت المقدس، وبالفاتح السلطان صلاح الدين، ومنها «ديوان المبشرات والقدسيات» و«ديوان التدبير» أو «ديوان المدبجات» أو «مناوح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في مدى ذكر الملك الناصر» السلطان صلاح الدين. وسأتحدث عن هذه الدواوين بالتفصيل في بحث خاص بعبد المنعم الجلياني في مبشرات و قدسياته، كما تقدم.

يوصف صلاح الدين بأنه «منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشريفين»<sup>(١)</sup>. يصفه العماد الأصفهاني فيقول: «... وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل أعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشد خناقها، وقطع أصلابها، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها»<sup>(٢)</sup>.

كان صلاح الدين مهتماً بالجهاد في سبيل الله. وقد قضى حياته مجاهداً للحفاظ على الإسلام والمسلمين. و«كان الجهاد وحبه، والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آتته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره، ويحث عليه»<sup>(٣)</sup>. ويبين القاضي الفاضل أن الجهاد في سبيل الله كان من أهم

(١) النوادر السلطانية/ ١٣.

(٢) العنبي والعقبي (عن الروضتين) ٢٢٥/٢.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢١، ٨٦، كتاب الروضتين ٢٢١/٢، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/

مقاصده ومراده. وبصوره متأهباً «للخروج نحو الكفار، لا تسأم رايته النصب، ولا جهة سيره الرفع، ولا جيشه الجرح، ولا يصغي إلى قول خاطر الراحة...»، ولا يجيب دعوة الفراش الممهّد، ولا يعرج على الظل المدد، ولا دمية القصر المشيد» كما جاء في رسالة كتبها في سنة ٥٧٩ هـ<sup>(١)</sup>. وبصوره، في المنشور الذي كتبه على لسان الإمام العاضد الفاطمي، في سنة ٥٦٤ هـ، مجاهداً ويحشه على الجهاد لتحرير بيت المقدس وغيره من بلاد الإسلام المحتلة، يقول: «والجهاد أنت رضيع دره، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيل مساكنك، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتلى مناقبك، فشمّر عن ساق من القنا، وخضض فيه بحرّاً من الطبا...»، وأسل الوهاد بدم العدى، وارفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح...»<sup>(٢)</sup>.

كان صلاح الدين يرى أن الجهاد فرض، وكان واثقاً من النصر، يقول: «قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين، وافترضه علينا، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض، لتوكلنا على الله تعالى»<sup>(٣)</sup>.

لقد تمثلت أهداف صلاح الدين في توحيد بلاد المسلمين، والجهاد ضد العدو المحتل، وبُصّور السلطان في عنايته بالجهاد بأنه كان يتحدث مع جلسائه في «ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب له». ولما مرض في سنة ٥٨١ هـ، نذر أنه إن خلصه الله من مرضه «اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله، والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام، والإقبال على قبيله» كما يقول العماد الأصفهاني<sup>(٤)</sup>.

(١) كتاب الروضتين ٤٨/٢.

(٢) نفسه ١٦١/١.

(٣) مفرج الكروب ٢٦١/٢، كتاب الروضتين ١٢٩/٢.

(٤) كتاب الروضتين ٦٥/٢. شعلة الإسلام/١٣٤.

ويصور القاضي الفاضل السلطان «أخذاً في أسباب الجهاد»، ويبين أن تكاليف الجهاد قضت بـ «فتح الفتوح العظام في أقل الأيام، وفصل القضية بين أهل الإسلام» وأعدائه، ويهتته القاضي الفاضل، بما فتح الله عليه من محبة الجهاد<sup>(١)</sup>.

كان بعض المسلمين يصفون السنة المجدبة بأنها ليست سنة جهاد، ولكن صلاح الدين كان مستعداً للجهاد في كل الأوقات، حتى في السنة المجدبة، قيل لصلاح الدين، وقد قصد حصار حصن بيت الأحزان في سنة ٥٧٤ هـ: «ليس هذه سنة جهاد، فإن استمنحوك السلامة فامنح، وإن جنحوك للسلام فاجنح، فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله»<sup>(٢)</sup>.

وكان صلاح الدين صابراً محتسباً في الجهاد، كما كان صابراً محتسباً في غير ذلك من الأمور<sup>(٣)</sup>.



يعبر الأدباء: شعراؤهم، وكتابهم، وخطباؤهم عن هذا الرمز البطولي، في أدبهم القدسي الجهادي. لقد تغنى شعراء العصر ببطولة صلاح الدين، من أمثال ابن سناء الملك، وابن الساعاتي، والعماد الأصفهاني، والرشيد النابلسي، وعبد المنعم الجلياني، وفتيان الشاغوري وغيرهم. ويصور الشعر صلاح الدين مجاهداً في سبيل الإسلام، ملبياً داعي الجهاد، دون غيره من الملوك الذين كانوا صُماً، لم يصفوا إلى استغاثة الإسلام، وبهذا استطاع أن يطهر القدس، ويخلصها مما

(١) كتاب الروضتين ٢/٢، ٣، ١٩.

(٢) نفسه ٢/٥، ٦.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢٤ - ٢٧، الروضتين ٢/١٨، مضمار الحقائق/ ١٤١، ١٤٤، النجوم الزاهرة

١١/٦، شفاء القلوب/ ٦٤.

كانت تزرع تحته من احتلال، كما يبدو جلياً في قول أبي علي الحسن بن علي الجويني<sup>(١)</sup>:

هذا وكم مَلِك من بعده نظر الإسـ      سلام يُطوى ويحوى وهو سكران  
تسعون عاماً بلاذ الله تَصْرُخ والـ      إسلام أنصاره صُمّ وعميان  
فالآن لَبى صلاح الدين دعوتهم      بأمر من هو للمعوان معوان  
في نصف شهر غدا للشرك مصطلماً      فظَهَرَتْ منه أقطارٌ ويُلدانُ

ويفضل الشعراء صلاح الدين على غيره من الملوك الآخرين الذين لم يخلصوا لدينهم، ولا لوطنهم، ولم تكن تهمهم إلا ذواتهم ومصالحهم، كما يبدو في قول ابن الساعاتي، من قصيدة قالها في فتح طبرية<sup>(٢)</sup>:

يقاتلُ كلُّ ذي مُلْكٍ رياءً      وأنتِ تُقاتلُ الأعداء دينا  
ومثله قول ابن سناء الملك من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، وبهنته بالنصر<sup>(٣)</sup>:

قد تَعْنَيْتَ حينَ أَحْبَبْتَ وجهَ الـ      له بالحرب والمحِبُّ مُعْنَى  
وبهذا قضى صلاح الدين على جحافل جيش العدو المحتل، كما يبدو في قول ابن الساعاتي<sup>(٤)</sup>:

أُمْسِتَتْ الأعداءِ وهي جحافلٌ      عن شَمْلِ دينِ جُمَعَتْ أشتاتِه  
وتصوره الأشعار القدسيات محيياً للهدى، ومميتاً للضلال، فقد أعاد شعائر الدين كما كانت قبل الاحتلال الصليبي، وقمع الشرك وأهله، ولذا فهو جدير بالثناء والتمجيد، كما يبدو في قول ابن سناء الملك<sup>(٥)</sup>:

إنَّ دينَ الإسلامِ مَنْ عَلَى الخُدِّ      ق وَأنتِ الذي عَلَى السَّيْنِ مَنْأ  
أنتِ أَحْيَيْتَهُ وَقَد كانَ مَيْتاً      ثم أَعْتَقْتَهُ وَقَد كانَ قَيْتاً

(١) كتاب الروضتين ١٠٥/٢.

(٢) ديوان ابن الساعاتي / ٤٠٦.

(٣) ديوان ابن سناء الملك (ط مصر) / ٣٤٠.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٦٤/١، ٤١٠/٢، كتاب الروضتين ١٠٦/٢.

(٥) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت) / ٨١٣، ٨١٤ وأنظر ص ٥٩ من هذا البحث.

شَكَرَ اللهُ مَا صَنَعْتَ عَلَى الْعَرِّ شِ فِي عَرَصَةِ الْمَلَائِكِ أَنْتَى  
لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ يُنْشَأُ وَمَحَلٌّ فَوْقَ الْأَسِنَّةِ يُبْنَى

وتصوره ثائراً قد أخذ بالثأر من أعداء دينه، ونصر الله، وجاهد صابراً  
محتسباً، فكانت تسميته الملك الناصر، ويوازن بينه وقد نذر نفسه للجهاد،  
وبين غيره من الملوك الذين آثروا راحتهم وملذاتهم، كما يبدو في قول ابن  
جبير<sup>(١)</sup>:

وَقَمَّتْ بِنَصْرِ إِلَهِ الْوَرَى فَسَمَّاكَ بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ  
وَجَاهَدْتَ مَجْتَهِدًا صَابِرًا فَلِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ صَابِرِ  
تَبَيْتُ الْمَلُوكَ عَلَى فُرْشِهَا وَتَرَقُّلُ فِي الزَّرْدِ السَّابِرِ  
وَتَوَثَّرُ جَاهِدَ عَيْنَ الْجِهَادِ مَنْ عَلَى طَيْبِ عَيْشِهِمُ النَّاصِرِ  
وَتَسَهَّرُ لَيْلِكَ فِي حَقِّ مَنْ سِيرَضِيكَ فِي جَفْنِكَ السَّاهِرِ

وتصوره وقد انتصف للدين الإسلامي من العدو الصليبي المحتل، وبذا  
قويت أركان الملة المحمدية كما يقول نجم الدين يوسف المعروف بابن  
المجاور، ويصوره والداً للدين عطوفاً بأبنائه<sup>(٢)</sup>:

شُدَّتْ قُوَى أَرْكَانِ مِلَّةِ أَحْمَدٍ وَتَحَمَّلَتْ بِجِهَادِهِ فِي الْمَوْقِفِ  
مَوْلَى غَدَا لِلدِّينِ أَكْرَمِ وَالِدٍ حَدَبٍ عَلَى أَبْنَائِهِ مُتَرَفَّرِفِ  
وَعَلَيْهِ أَنْزَلَ فِي الْجِهَادِ مُفْضَلٌ فَلِذَلِكَ يَقْرَأُ بِسَبْعَةِ أَحْرَفِ

وما أجمل قول نجم الدين بن المجاور، وهو يصور صلاح الدين محياً دين  
محمد، وساتره «من بعد طول تكشف» في اثناء الاحتلال الصليبي، ويصوره  
كيف قاد حركة الجهاد، وضبطها بالسيف، والعزم، والرأي، كما يبدو في  
قوله<sup>(٣)</sup>:

(١) كتاب الروضتين ١٠٦/٢، الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٥٩٨، ٥٩٩، رحلة  
العبدري / ٩٤، ٩٥.

(٢، ٣) كتاب الروضتين ١٠٣/٢، ١٠٤.

وَصَبَطَتْ دِيوَانَ الْجِهَادِ بِعَامِلٍ مِنْ عَامِلِيٍّ وَبِمَشْرِفٍ مِنْ مَشْرِفِيٍّ  
وَبِجَهْدِ الْعَزْمِ الَّذِي لَا يَنْثَنِي وَبِنَظَرِ الرَّأْيِ الَّذِي لَمْ يَطْرَفِ

ويصور الشعر صلاح الدين مجاهداً في سبيل تحرير مدينة بيت المقدس خاصة، وأنه هو الجدير بتحريرها دون غيره من ملوك المسلمين، وقد طهرها من الاحتلال، ورفع فيها شعار الدين، ونزع شعار الكفر ورموزه، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، من قصيدة هنا بها صلاح الدين بالفتح القدسي، وهو مخيم عليه<sup>(١)</sup>:

فَلَا يَسْتَحِقُّ الْقُدْسَ غَيْرُكَ فِي الْوَرَى فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ دُونِهِمْ فَتَحَ الْقُدْسَا  
وَمِنْ قَبْلِ فَتَحِ الْقُدْسِ كُنْتَ مَقْدَساً فَلَا عَدَمْتُ أَحْلَافُكَ الطَّهْرَ وَالْقُدْسَا  
وَطَهَّرْتَهُ مِنْ رَجْسِهِمْ بِدِمَائِهِمْ فَأَذْهَبَتْ بِالرَّجْسِ الَّذِي ذَهَبَ الرَّجْسَا  
نَزَعْتَ لِبَاسِ الْكُفْرِ عَنْ قُدْسِ أَرْضِهَا وَالْبَسْتَهَا الدِّينَ الَّذِي كَشَفَ اللَّبْسَا  
وَعَادَتْ بَيْتَ اللَّهِ أَحْكَامُ دِينِهِ فَلَا بَطْرُكَأُ أَبْقِيَتْ فِيهَا وَلَا قَسَا  
وبالفتح القدسي العظيم، أحرز صلاح الدين المآثر والمفاخر، وهو الذي

آثره الله بهذا الفتح، كما يبدو في قول الشاعر فتیان الشاغوري<sup>(٢)</sup>:

مَضَتْ الْمَلُوكُ وَلَمْ تَنْلُ عُسْرَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ مِنْ مَنَاجِحٍ أَوْ مَفْخَرٍ  
وَبِذَاكَ آتَرَكَ الْإِلَهَ عَلَيْهِمْ يَا مُؤَثَّرًا أَوْزَعْتَ شُكْرَ الْمُؤَثَّرِ  
ويصور فتیان الشاغوري تحرير بيت المقدس، وتطهيره بقيادة صلاح الدين، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup>:

لِمَ لَمْ تَدْنِ شُوشُ الْمَلُوكِ وَقَدْ مَلَكَ السَّوْاحِلُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ  
وَاسْتَنْفَذَ الْبَيْتَ الْمَقْدُسَ عَنُوءَ مِنْ كُلِّ ذِي نَجِسٍ بِكُلِّ مَطْهَرٍ

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني صلاح الدين فاتحاً المسجد الأقصى، ومنقذاً القدس من الجبابرة المحتلين<sup>(٤)</sup>.

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٢، كتاب الروضتين ١٠١/٢، ١٠٢، عقد الجمان للعيني ٢٥ / حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب / ١٥٠.

(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٦.

(٣) ديوان فتیان الشاغوري ١٤١/٢. (٤) نظر: كتاب الروضتين ١٠٣/٢.

وبهذا وصل صلاح الدين إلى تحقيق الآمال التي كان يسعى إلى تحقيقها، كما كان المسلمون يسعون إلى تحقيقها، يقول ابن الساعاتي في قصيدة يمدح بها الناصر صلاح الدين بمناسبة الفتح القدسي<sup>(١)</sup> :

وَصَوْلٌ إِلَى الْغَايَاتِ وَالْفَكْرُ قَاصِرٌ      فَكَيْفَ يَفُوتُ السُّبْقَ مِنْ رَكْبِ الْعَزْمَا  
فَفِي لَهَوَاتِ الشَّرْكَ أَرْسَلَهَا شَجِيٌّ      وَفِي جِهَةِ الْأَيَّامِ غَادَرَهَا وَسْمَا

ويصور العماد الأصفهاني الزمان مفتخراً بعصر صلاح الدين وفتوحاته التي كانت مقدمة للفتح القدسي<sup>(٢)</sup>، ويتغنى الشعراء بتلك الانتصارات والفتوحات، وتتردد أصداؤها في أشعارهم<sup>(٣)</sup>.

### ★ ★ ★

تصور الأشعار القدسيات السلطان صلاح الدين ربّ الملاحم التي تفوق غيرها من الملاحم، وهو الذي بنى دولته بالسيوف، والرماح، وباقتحام المهالك، فدانت له شوس الملوك، واستنقذ البيت المقدس، وملك السواحل، في ثلاثة شهر، وهو الذي عفر تيجان الملوك في التراب، وأذل كل أصغر منهم، ونصر الإسلام، ووأد الشرك، كما يقول الشاعر فتیان الشاغوري مخاطباً صلاح الدين<sup>(٤)</sup> :

بِالسَّيْفِ رَدَّ السَّيْفُ بَحْرًا مِنْ دَمٍ      يَنْبِوعُهُ مِنْ هَامَةٍ أَوْ مَنْخَرٍ  
بِحَرِّ صَوَارِمِهِ الْقَنَا وَقُلُوعِهِ      رَايَاتُهُ وَالسُّفُنُ كُلُّ مُضْمَرٍ  
أَرْسَلَتْ مِنْ خَلَلِ الْعَجَاجِ صَوَاعِقًا      تَهْمِي عَلَيْهِمْ مِنْ فَتَوَقِ كَنْهَوْرٍ<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٥/٢.

(٢) انظر: السواد السلطانية/ ٤٣٨، الروضتين ٩٩/٢، الكامل ٣٦٥/١١، ٥٢٩ - ٥٥٨، ٥/١٢، ٢٣، ٥٢٧ - ٥٣١، النجوم الزاهرة ٣٥/٦ - ٤٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٥/٧ - ٣٤٧، ١٨٦/٨ - ١٨٨، حسن المحاضرة ١٧/٢، ١٨، شفاء القلوب ٦٠، ٩٩، ١١٨، ١٢٢ - ١٢٦، ١٥٣، شعلة الإسلام/ ١١٨ - ١١٩.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٤٠٨/٢، مفرج الكرب ٢٠٠/٢، كتاب الروضتين ٨٥/٢، ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، ٢٣٣، الروضتين ١٠٢/٢.

(٤) ديوان فتیان الشاغوري/ ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦.

(٥) كنهور: قطع من السحاب كالجبال، أو المتراكم منه.

أعلى الأدهم من أسرن وأرخصت      ييض الصوارم من نهاب العسكر  
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها      بك فهو داع دعوة المستنصر

وبصور الشاعر عبدالمنعم الجلياني ملاحم صلاح الدين، وقد أنست  
ملاحم ذي القرنين<sup>(١)</sup>. كما أنسى عزمه عزم ابن مرداس، كما يبدو في قول  
الشاعر نجم الدين بن المجاور<sup>(٢)</sup>:

عزمٌ وحلمٌ أنسياما كان من      عزمِ ابنِ مرداسٍ وحلمِ الأحنفِ  
يا أيها الملك الذي لطباعه      وسيوفه خلقتا رضى وتعسفِ  
سنت سيوفك في الرؤوس ختانةً      ذهبت بمهجة كلِّ عالجٍ ألقف<sup>(٣)</sup>

ويصوره العماد الأصفهاني يطرب لمقارعة السيوف في المعركة، كما يبدو  
في قوله<sup>(٤)</sup>:

قرعُ الطُّبى بالطُّبى في الحرب يُطربُه      لا قينةً صنَعُ باللحنِ مطرابُ  
ويصوره ابن الساعاتي صاحب العزمات القوية التي جاءت بالفتح القدسي  
المبين، كما يبدو في قوله، في فتح طبرية<sup>(٥)</sup>:

جلت عزماتك الفتح المبينا      فقد قرئت عيون المسلمينا  
لقد جردت عزمًا ناصريًا      يُحدثُ عن سناه طورُ سينا  
وأذعن كوكب لما تهادت      نجومٌ ملوكها لك مُذ عنينا  
فكنت كيوسف الصديق حقاً      له هوت الكواكبُ ساجدينا

وهي عزمات مسددة في الحروب كما يقول ابن الساعاتي<sup>(٦)</sup>، وهي عزمات

(١) انظر: الروضتين ١١٦/٢ - ١١٧.

(٢) نفسه ١٠٣/٢، ١٠٤.

(٣) الألقف: من لم يختن.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ٧٥، كتاب الروضتين ١٠٢/٢.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٤٠٦/٢، مفرج الكروب ١٩٨/٢، كتاب الروضتين ٨٤/٢، النجوم الزاهرة ٣٤/٦،  
مرآة الزمان ١٥٢/١٤، شفاء القلوب / ١٢٦.

(٦) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٦٤/١، ٤١٠/٢، الروضتين ١٠٦/٢.

تفود إلى النصر كما يقول العماد الأصفهاني في قدسيته التي هنا بها السلطان بالفتح ، وهو مخيم في القدس<sup>(١)</sup> :

كسرتهمُ إذ صَحَّ عَزْمُكَ فِيهِمْ      وَنَكَّسْتَهُمْ إِذ صَارَ سَهْمُهُمْ نَكْسًا  
بِوَاقِعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ جِيْشَهُمْ      دَمَارًا كَمَا بَسَتْ جِبَالَهُمْ بَسًا  
ويصور ابن الساعاتي سطوات صلاح الدين كما يبدو في قوله<sup>(٢)</sup> :

سَلُوا السَّاحِلَ الْمُخَشِيُّ عَنِ سَطَوَاتِهِ      فَمَا كَانَ إِلَّا سَاحِلًا صَادَفَ الْيَمَّا  
ويصوره عبدالمنعم الجلياني صاحب العزمة القصوى والرمية المقصدة ،  
وبها كان فتح الفتوح العظمى ، ويصوره أسدًا منتصرًا ، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup> :

أَهْوَى إِلَيْهِمْ صَلَاحُ الدِّينِ مَفْتَرَسًا      وَهُوَ الْغَضَنْفَرُ عَدَى ظَفْرَةَ الظَّفَرُ  
ومثله قول ابن جبير<sup>(٤)</sup> :

وَكَمْ لَكَ مِنْ فَتْكَ فِيهِمْ      حَكَّتْ فَتْكَ الْأَسَدِ الْخَاتِرِ  
وقول عبدالمنعم الجلياني<sup>(٥)</sup> :

لَكِنَّ بِأَسِّ صَلَاحِ الدِّينِ أَذْهَلَهُمْ      بِوَقْعَةِ التَّلِّ وَاسْتِشْرَاءِ سَوْرَتِهِ  
يُعْيِي الْجَوَارِحَ وَالْفَرَسَانَ وَهُوَ عَلَى      بَدءِ النِّشَاطِ عَشِيًّا مِثْلَ بَكْرَتِهِ

قاد السلطان صلاح الدين المسلمين إلى النصر في الكثير من المعارك ومنها «حطين» التي قاد صلاح الدين المسلمين فيها إلى النصر، وهي المعركة التي كانت مقدمة للفتح القدسي . ومن الشعراء الذين خصوها بعنايتهم الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني . يقول في قصيدته التي سماها «القصيدة الفتحية الناصرية»<sup>(٦)</sup> :

يَا وَقْعَةَ التَّلِّ مَا أَبْقِيَتْ مِنْ عَجَبٍ      جِحَافِلٌ لَمْ يَفُتْ مِنْ جَمْعِهَا بَشْرُ

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٤ ، كتاب الروضتين ٨٣/٢ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٦/٢ .

(٣) كتاب الروضتين ١١٦/٢ .

(٤) الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٥٩٨ - ٦٠١ ، رحلة العبدري / ٩٤ - ٩٦ كتاب الروضتين ١٠٦/٢ .

(٥) كتاب الروضتين ١٠٣/٢ .

(٦) نفسه ١١٦/٢ .

ويا ضحى السبب ما للقوم قد سبتوا      تهودوا أم بكأس الطعن قد سكبوا  
ويا ضريح شعيب ما لهم جنموا      كمدين أم لقوا رجفاً بما كفروا  
حطوا بحطين ملكاً كافياً عجباً      في ساعة زال ذاك الملك والقدر

ويقول الجلياني في قصيدته القدسية الكبرى، مصوراً ما لحق بجبايرة الفرنج، والمصير الذي ألوا إليه، بعد وقعة يوم التل، وهي الملحمة التي يفضلها على غيرها<sup>(١)</sup>:

وما طرّق الأسماع من عهد آدم      كملحمة التل التي تلت العدا  
أتوا وادياً ما زال ينفي خبائثاً      ويصفي بعقبى الدار طائفة الهدى  
به جثمت أصحاب ليكة وهي في ذراه      وذأ فيه شعيب تأيذا  
ويصورها العماد الأصفهاني معركة حاسمة قضى فيها صلاح الدين على الكفر وأهله، ويشيد فيها بالسلطان وفرسانه<sup>(٢)</sup>:

مَحَبَّتَ عَلَى الْأَرْدُنِّ رُدْنَا مِنَ الْقَنَا      رُدَّيْنِيَّةً مُلْدَأً وَخَطِيَّةً مُلْسَا  
حَطَّطَتْ عَلَى حِطِينَ قَدَّرَ مُلُوكُهُمْ      وَلَمْ تُبَقِّ مِنْ أَجْنَسِ كُفْرِهِمْ جِنْسَا  
وَنَعَمَ مَجَالُ الْخَيْلِ حِطِينُ لَمْ تَكُنْ      مَعَارُكُهَا لِلْجُرْدِ ضَرْساً وَلَا دَهْسَا  
غَدَاةً أَسْوَدَ الْحَرْبِ مُعْتَقِلُو الْقَنَا      أَسَاوِدُ تَبَغِي مِنْ نَحُورِ الْعِدَا نَهْسَا  
ويصور ابن المجاور تحرير الساحل، وما أصبح عليه بعد زوال الاحتلال الصليبي فيقول<sup>(٣)</sup>:

ما للسواحل غيرٌ بحرك حافظُ      بشبَا سنانٍ أو بصفحة مُرْهَفِ  
هذا الطرازُ الأخضرُ استفتحتهُ      فزَهَا بثوبٍ من عُلاكِ مُسْجَفِ

ويوازن الرشيد النابلسي بين فتوحات صلاح الدين وفتوحات الإسكندر، ويشيد بفتوحه، ويقلل من شأن فتوحات الإسكندر في هذا المجال، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:

(١) كتاب الروضتين ١١٧/٢، ١١٨. وانظر: نفسه ١٠٣/٢.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٤، كتاب الروضتين ٨٣/٢، مرآة الزمان ١٤ / ق ١٥٢، النجوم الزاهرة ٣٤/٦، معجم الأدباء ٢٤/١٩، ٢٥.

(٣) كتاب الروضتين ١٠٤/٢. (٤) نفسه ١١٨/٢.

فإذا مررت بملكه وفتوحه فاسخر بما يروى عن الإسكندر

ولم تكن فتوحات صلاح الدين وانتصاراته سهلة المنال، فقد بذل الكثير الكثير في سبيل تحقيقها، وقاد المسلمين إلى ثغور الصليبيين التي كانوا قد احتلوها، فحررها، وقضى على أركان دولتهم التي أقاموها مستعمرين مستوطنين، وبدو ذلك جلياً في قصيدة للرشيد بن بدر النابلسي، قالها في فتح القدس، ومنها قوله<sup>(١)</sup>:

لقد فتحت عصباً من ثغورهم لولاك ما هدد من أركانها حجر  
تركت أرضهم من طول ما عمرت منهم بلاقع لا أنشى ولا ذكر

ويعصور فتیان الشاغوري كيف تبنى الدول عامة، وكيف بنى صلاح الدين دولته خاصة، فيبين أن بناء الممالك لا يتم إلا بالسيف من ناحية، وبإقامة العدل، ونشر الأمن، ورعاية الرعية رعاية حقه، كما يبدو في قوله<sup>(٢)</sup>:

تبنى الممالك بالوشيح الأسمر والبيض تلمع في العجاج الأكد  
وبكل أجرد شيطم يعدو إلى الدهج بمقتحم المهالك مسعر  
والعدل والإحسان والمعروف ممد لواء الحياض لموسر ولتمعسر  
والحلم والعفو اللذين شذاهما متضوع كأريج مسك أذفر  
كفعال مولانا صلاح الدين ذي المجد الغداس والعطاء الكوثر  
ويعصور الحكيم الجلياني ملاحمه خارقة وكأنها الأساطير، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup>:

ولابن أيوب في الافرنج ملحمة دلت عليها أساطير وحسيان  
ويعصور رأيته خفاقة فوق البلاد التي حررها، كما يبدو في قوله أيضاً<sup>(٤)</sup>:

أرى الراية الصفراء يرمي اصطفاؤها بني أصفير بالرافعات اللهاذم  
فتسبي فلسطيناً وتجنبي جزائراً وتملك من يونان أرض الأساحم  
وتعشو لها الأملاك شرقاً ومغرباً بذات حكمت حذاق أهل الملاحم

(١) شفاء القلوب / ١٦٦ . (٢) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤١ .

(٣، ٤) كتاب الروضتين ١١٦/٢ .

ولهذا كله، توجه الشعراء بتهانيهم للسلطان الناصر صلاح الدين، وهم يعبرون في ذلك عن أحاسيسهم ومشاعرهم، كما يعبرون عن أحاسيس الأمة الإسلامية ومشاعرها إزاء الانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدين، ومن ذلك ما قاله ابن سناء الملك متغنياً بفتوحات صلاح الدين وانتصاراته، ومعبراً عن أحاسيسه، وأحاسيس المسلمين في جميع بلدانهم، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:

وَتَهَادَتْ عِرَائِسُ الْمُدُنِ تُجَلَى      وَثَمَارُ الْأَمْوَالِ مِنْهَنْ تُجْنَى  
لَا تُخْصُ الشَّامُ فِيكَ التَّهَانِي      كُلُّ صَقْعٍ وَكُلُّ قَطْرٍ مُهْنِي  
قَدْ مَلَكَتِ الْبِلَادَ شَرْقاً وَغَرْباً      وَحَوَّتِ الْأَفَاقَ سَهْلاً وَحَزْنًا

ويبدو ابن سناء الملك حائراً في توجيه التهاني إلى صلاح الدين، وقد رأى أنه كل فتح جدير بالتهنئة، كما يبدو في قوله مهتماً بكسر الفرنج، وملك بلاد الشام<sup>(٢)</sup>:

لَسْتُ أَدْرِي بَأَيِّ فَتْحٍ تَهَّنَا      يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَنَّى  
كُلُّ فَسْحٍ يَقُولُ إِنِّي أَوْلَى      وَهوَ أَوْلَى لِأَنَّهُ كَانَ أَهْنَا  
أَسْهَبُ نَبِيكَ إِذْ تَمَلَّكَتِ شَامًا      أَمْ نُهْنَيْكَ إِذْ تَمَلَّكَتِ عَدْنَا  
قَدْ سَلَّخَتْ الْجَنَانَ قَصراً فَقَضَى      إِذْ فَتَحَتْ الشَّامَ حِصْناً فَحِصْنَا

ومثله قول فتیان الشاغوري<sup>(٣)</sup>:

لَمْ تَخُلْ سَمْعاً مِنْ هِنَاءٍ مُهْنِيٍّ      لِلْمُسْلِمِينَ وَمِنْ سَمَاعِ مُبْشِرِ  
وقول ابن الساعاتي<sup>(٤)</sup>، وقول ابن جبیر مبشراً صلاح الدين بالنصر، والقضاء على الأعداء الذين تمد رقابهم «إلى سيفه الباتر» كما يقول<sup>(٥)</sup>.

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٨٢٠، مفرج الكروب / ٢ / ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) / ٧ / ٩١.

(٢) ديوان ابن سناء الملك / ٨١٣، ٨٠٤، مفرج الكروب / ٢ / ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) / ٧ / ٩١، شفاء الغلوب / ١٥٠.

(٣) ديوان ابن الساعاتي / ٢٧.

(٤) ديوان ابن الساعاتي / ٢ / ٤٠٦ - ٤٠٨، كتاب الروضتين / ٢ / ٨٤ - ٨٥.

(٥) ديوان ابن الساعاتي / ٢ / ٥٩٨ - ٥٩٨، رحلة العبدري / ٩٤، كتاب الروضتين / ٢ / ١٠٥.

وقد تمت كل هذه الفتوحات والانتصارات بالجيوش الإسلامية التي قادها السلطان صلاح الدين، وكانت تلك الجيوش قد نالت عناية كبيرة منه، فقد وضع نظاماً للجيش، رتب به أحواله، وأمراءه، وجنده، وأمواله، وجعل له ديواناً خاصاً عرف بديوان الجيش<sup>(١)</sup>.

وعمل صلاح الدين على أن يكون الجند مرتبطين بعقيدتهم، وكان حريصاً على تربيتهم تربية إسلامية، وتقوية الروح الدينية في نفوسهم.

لقد كان جند المسلمين يحاربون اعداءهم متمسكين بعقيدتهم، متبعين تعاليمها في الجهاد، مبتغين رضا الله وثوابه، وقد كانوا يجاهدون لتحرير بيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين التي احتلها العدو الصليبي، وكانوا يرون في الجهاد: «ديناً وحثماً واجباً، فلا يحتاج إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمتنعون ولا يتمنعون، ويُزجرون ولا ينزجرون»<sup>(٢)</sup>.

ومن مظاهر عنايته بالجيش أنه «جعل كأساً مخصوصة تسمى (كأس الفتوة)، وتوزع هذه الكأس على كل من يتظم في سلك الفتیان، ويعرف من الشبان الشجعان، وهذه الكأس كانت عبارة عن إناء جميل أنيق»<sup>(٣)</sup>.

وعني صلاح الدين بالعتاد الحربي، والمؤن التي كانت جيوشه تزود بها. كما عني بالأسرى المسلمين، وكان في عهده ديوان لهم، وعني بالبريد، وبالجواسيس لاستطلاع أخبار العدو<sup>(٤)</sup>.

= ١٠٦، نفع الطيب ٣٨٣/٢، الاعلام بمن حل مراكز وأغامت من الاعلام ٩٣/٣، ٢١٥.

(١) انظر: الروضتين ٢٩٦/١، صح الأعمش ١١/٤-١٦، صلاح الدين-جب/٩٧، ١٢٨، ١٥٦، ١٥٧، الحرب والسلام/ ٢، ٢٩، ٣٢، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ١١٩، ١٢٠، صلاح الدين والصليبيون/ ١٠٨-١١٢، سياسة صلاح الدين/ ٢٤١.

(٢) مفرج الكروب ١٢/٢، الكامل ٥٤٧/١١.

(٣) انظر: الحرب والسلام/ ٤٨.

(٤) انظر: قوانين الدواوين/ ٣٥٤، الروضتين ٢٠٧/١، ٦/٢، ٨٠، ٢٨٥، نهاية الأرب ٢٨٣/٨، صح الأعمش ١١/٤، سياسة صلاح الدين/ ٣٦٠، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ٢٥٩-٣١٨، صلاح الدين والصليبيون/ ١٢٠-١٢٧، صلاح الدين-جب/ ١٧٦، ١٧٧، دراسات في حضارة =

وكانت جيوش صلاح الدين تتكون من الفرقة الأسدية، نسبة إلى اسد الدين شيركوه، والفرقة الصلاحية، نسبة إلى صلاح الدين، ومن فرقه الأخرى فرقة تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، والفرق العسكرية الشامية في دمشق وحلب، والفرق العسكرية العراقية في الموصل، والجزيرة. وكانت هناك قوات أخرى من العرب مثل بني منقذ في شيزر، والتركمان، والأكراد، والمتطوعون، والمشاة. وعني صلاح الدين بالطلائع أو اليزك، كما عني بالكمان، والغارات الليلية، والحرب الخاطفة والمباغثة<sup>(١)</sup>.

لقد حققت تلك الجيوش الإسلامية الانتصارات، وفتحت الفتوح العظيمة، وأثارت الرعب في نفوس الأعداء، وقضت عليهم، وقد وصفها الشعراء بأنها «جنود الرعب» كما يبدو في قول الشاعر عبد المنعم الجلياني، من قصيدته القدسية الكبرى<sup>(٢)</sup>:

وأعدى جنود الرعب يردي عاداته      وسلم جميع المسلمين مُجَنِّداً  
ومن عجبٍ خمسون ألف مقاتل      سببهم جيوشٌ ليس فيها مَنْ ارتدى

وقول ابن جبير مصوراً تلك الجيوش المنصورة، وحاتماً صلاح الدين على الجهاد<sup>(٣)</sup>:

جنودك بالرعب منصورةً      فناجز متى شئت أو صابر  
فكلهم غارق هالك      بتيار عسكرك الزاخر

وقول فتیان الشاغوري مصوراً تلك الجيوش قوية تتضاءل أمامها الجيوش

= الإسلام / ١١٠، ١١١، الحرب والسلام / ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٩، ٨٣-٨٦.

(١) انظر: الروضتين / ١٤٣-١٨٦، مفرج الكروب / ٢/٤٠٠، السلوك / ١/١٥٠، صلاح الدين - جب /

١٥٥، ١٦٥ - ١٧١، دراسات في حضارة الإسلام / ٩٧، ٩٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧ -

١٠٩، الحرب والسلام / ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، جيش مصر في أيام صلاح الدين / ٧، ١٣، ١٤، ١٥،

٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦، صلاح الدين والصليبيون / ١١٣ - ١٢٠، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين /

١٥٣ - ١٦١.

(٢) كتاب الروضتين / ٢/١١٨.

(٣) الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٥٩٩، رحلة العبدري / ٩٤، كتاب الروضتين / ٢/١٠٩.

الأخرى، وهي التي ترفع راياته صفراً، وتصيرها حمراً في ساحات الوغى، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:

يغزو الملوك الرُعبُ قبل مسيره      في عسكر أفتك به من عسكر  
هو كاسرُ كسرى ومُتبعُ تبع      ذُلاً أحاط به وقاسرُ قيصر  
فلجيشه ولعزمه متضائلُ      جيشُ الهرقل وعزْمَةُ الإسكندر  
راياته صفراً تَرْدُنْ وتسنني      حُمرًا تمجُّ نجيع آلِ الأصفر

ومثل هذا قول ابن الساعاتي في قصيدة قدسية قالها عند فتح البيت المقدس، في رجب من سنة ٥٨٣ هـ<sup>(٢)</sup>.

فَقَلَّ لِلْحَسَامِ اصمَتْ أمام جيوشه      فغيرُ مُجابٍ إن دَعَا منهم كَلْما

ويصورهم ابن المجاور جنود الله، ويشيد بهم في شجاعتهم، واصطفائهم للجهاد في سبيل دينهم، والدفاع عن حياض بلاد المسلمين، وتخليصها من الأعداء المحتلين، كما يبدو في قوله من قصيدة أرسلها إلى صلاح الدين من مصر، ويذكر العماد أنه عرضها على السلطان في بيت المقدس، يقول<sup>(٣)</sup>:

جاءت جنودُ الله تطلبُ ثارها      وصدورها بل عن قليل تشتفي  
فانهضُ بها وتقاصُ حَقَّك مُوقناً      إنَّ الإله بما تُؤمَلُه خَفِي  
هم فتيةُ الأتراك كلُّ مُجفَجَف      يَغشى الكريهةَ فوق كُلِّ مُجفَجَف  
قومٌ يخوضون الحِمَامَ شجاعةً      لا ينظرون إليه من طَرْفٍ خَفِي  
إنَّ صَبَّحو الأعداء في أوطانهم      تركوا ديارهُم كقاع صفصف  
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا      لله دُرُّ المصطفى والمُصطفى

ويصور الجويني جند السماء مشاركين جند الأرض في الجهاد لاعلاء شأن دين الله، ورفع شعائره، كما يبدو في قوله من قصيدة أثبتها العماد الأصفهاني في الفتح القدسي<sup>(٤)</sup>:

(١) ديوان فتیان الشافعی - ١١١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي / ٣٨٥.

(٣) كتاب الروضتين ١٠٤/٢.

حُنْدُ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَعْوَانُ مَنْ شَكَّ فِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بُرْهَانُ  
ومثل ذلك قول العماد الأصفهاني ، من قصيدة قدسية يهنئ بها السلطان  
صلاح الدين بالفتح القدسي ، وهو مخيم عليه<sup>(١)</sup> :

جُنُودُكَ أَمْلاكُ السَّمَاءِ وَظَنَّهُمْ عِدَاتُكَ جَنَّ الْأَرْضِ فِي الْفَتْكِ لَا الْإِنْسَانَ  
إِلَى أَنْ يَقُولَ فِي الْقَصِيدَةِ نَفْسَهَا :  
أَقَامَتْ بَغَابِ السَّاحِلِينَ جُنُودُكُمْ وَقَدْ طَرَدَتْ عَنْهُ ذُنَابَهُمُ الطُّلُوسَا  
وقول ابن سناء الملك من قصيدة يهنئ فيها صلاح الدين بكسر الفرج ،  
وتحرير بلاد الشام في سنة ٥٨٣ هـ<sup>(٢)</sup> :  
مَلِكٌ جُنْدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّذِّ لَهُ فُرَادَى جَاءَتْ إِلَيْهِ وَمَثْنَى

★ ★ ★

ويتحدث الشعراء عن صنوف الأسلحة التي استخدمتها تلك الجيوش  
الإسلامية في فتوحها.

يصور العماد الأصفهاني أثر الرقاق القاطعة ، فهي التي بدلت ما كان العدو  
يتصف به من الخشونة والقسوة . ويصور أثر الرماح الردينية والخطية ، كما يبدو  
في قوله مخاطباً صلاح الدين ، مهتماً إياه وهو مخيم في القدس<sup>(٣)</sup> :

أَسْوَأُ شُكْسَ الْأَخْلَاقِ حُسْنًا قَلْبِي نَسْتُ  
حدودُ الرقاق النخسن أخلاقها الشُّكْسَا

ويبدو مثل ذلك في قول ابن الساعاتي ، من قدسية قالها عند فتح بيت  
المقدس . ويصورها تضيء الليل البيهم نهاراً ، كما يصور بكاءها ينشر الهدى  
في البيت العتيق والمسجد النبوي ، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup> :

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣١ ، كتاب الروضتين ١٠١/٢ ، عقد الجمال للعيني ٢٥ / حركات سنة

٥٨٣ هـ ، شفاء القلوب / ١٥٠ ، معجم الأدباء ١٩ / ٢٤ .

(٢) ديوان ابن سناء الملك / ٨١٥ .

(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٤ ، كتاب الروضتين ٨٣/٢ .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢ / ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

وَسِمَّتْ سَيْوفاً تَنْهَبُ اللَّيْلَ وَقَدَّةً      فكلُّ عِيانٍ ظَنَّها النَّارَ وَالْفَحْمَا  
 إِذا عَقَمْتُ سَوْدَ المَنايا قَرَعَتِها      ببيض ذَكَورِ تَوْلَدِ المِحْنِ العُقمَا  
 تَبَسُّمٌ وَفي وَقْتِ الفِراقِ فَإِنْ يَكُنْ      لِقَى وَوَعَى فاضت مدامعُها سَجْمَا

وقوله (١):

هذي سيوفك مُحَرِّماتٌ دونه      لبكائهن تَبَسَّمَتْ حُجراتُهُ

ويصور العماد السيف طاهراً يحسودم القائد الصليبي أرناط لاتصافه

بالغدر، كما يبدو في قوله (٢):

حَسَا دَمَهُ ماضِي الغِرارِ لَعَدْرِهِ      وما كانَ لولا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحسَى  
 فَللَّهُ ما أَهدى يداً فَتَكَتْ به      وأطهر سيفاً مُعدماً رَجَسَهُ النَجِسا  
 نَسَفَتْ به رَأْسَ (البرنس) بِضربةٍ      فَأشْبَهَ راسِي رأسَهُ العِهْنِ والبُرِسا  
 تَبَوَّغَ في أوداجِهِ دُمٌ بِغِيهِ      فصالَ عليه السيفُ يَلحُسُهُ لِحْسا

وفي سبيل تحرير ديار الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس، عُني صلاح

الدين بالأسطول، وأفرد له ديواناً خاصاً عرف بديوان الأسطول (٣).

★ ★ ★

وتدعو الأشعار القدسيات إلى تحرير الساحل كما يبدو في قول ابن

الساعاتي (٤):

فالمَمُّ بالسواحلِ فهي صَورٌ      إليك وألحق الهامَ المَتونَا

وقوله (٥):

وما السواحلُ إلا كالفراتِ إِذا      وافي فَإِنْ لم تُحطْ علماً به فَسَلِ  
 فلا تُضِعْهُ فما الدينُ الحنيفُ على      خَلَقِ سواك من الدنيا بمتكَلِ  
 ويصور عبدالمنعم الجلياني بعض أبناء صلاح الدين قد جازوا البحر

(١) ديوان ابن الساعاتي ٤١١/٢.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٥، كتاب الروضتين ٨٣/٢.

(٣) انظر: قوانين الدواوين / ٣٣٩، الخطط المقرزية ١٩٤/٢، السلوك ٣٣٩/١، صلاح الدين - جب /

١٥٨، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين / ٣٤١ - ٣٥٠.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٤٠٧/٢، كتاب الروضتين ٨٥/٢، مفرج الكروب ٢٠٠/٢.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٤/٢.

للجهاد في سبيل الله، والإغارة على أعداء المسلمين، كما يبدو في قوله من قصيدة أنشأها في سنة ٥٨٢ هـ، وحضر بين يدي السلطان صلاح الدين<sup>(١)</sup> :  
وجاز بعضُ بنيه البحرَ تجفلاً من غاراتِه الرومُ والصقلابُ واللانُ  
ويصور الجلياني نفسه الأساطيل الإسلامية تغزو صقلية، كما يبدو في قوله<sup>(٢)</sup> :

تغزو أساطيلنا منها صقليةً فُتدَعِرُ الرومُ والصقلابُ والخَزْرُ

### ★ ★ ★

ومن ناحية أخرى، فقد عمل صلاح الدين جاهداً للاستيلاء على قلاع العدو الصليبي، وتصيير بعضها معقلاً حصيناً، وهدم بعضها الآخر، ومن ذلك أن المسلمين أخذوا ثغر أيلة (العقبة)، وصيروها معقلاً للجهاد، بعد أن كانت تهدد الحرمين، واليمن، كما جاء في كتاب فاضلي أنشأه في سنة ٥٧٠ هـ<sup>(٣)</sup> .  
ومن ذلك أيضاً أن العدو الصليبي كان قد انتهز الفرصة في سنة ٥٧٤ هـ، وبنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان للداوية . و«كان على المسلمين منه ضرر عظيم»، وكان العدو الصليبي يقطع الطرق على قوافل المسلمين، وإزاء ذلك كتب صلاح الدين إلى الفرنج مطالباً بهدم الحصن، فطلبوا أن يعطيهم ما غرموه في بناء الحصن، ولكنه أغار عليهم، وعاد بالأسرى والغنائم، ثم خربه في ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ<sup>(٤)</sup> .

وتردد صدى تخريب هذا الحصن في الشعر، فقد هنا الشعراء السلطان صلاح الدين بالنصر في حصن بيت الأحزان، ومن ذلك قصيدة لابن الساعاتي، أشاد فيها بالسلطان، وتغنى بصنيعه، وخص الحصن بالحديث، يقول<sup>(٥)</sup> :  
وقفتُ على حصن المخاض وإنه لموقفٍ حقٍ لا يوازيه موقف

(١) انظر: الروضتين ١١٦/٢ .

(٢) نفسه ١١٧/٢ .

(٣) انظر: نفسه ٢٤٢/١ .

(٤) انظر: نفسه ٦/٢، ٨، ١١ - ١٤ .

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٤٠٩/٢ .

إلى أن يقول:

وما رجعت أعلامك الصفر ساعةً إلى أن غدت أكبادها السود ترجف  
أيسكن أوطان النبيين عصبهً تمينُ لدى أيمانها وهي تحلف  
نصحتكم والنصح في الدين واجبٌ ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

★ ★ ★

وكان صلاح الدين يحرص، في سياسته العسكرية، على تهيئة أفضل الظروف العسكرية لإحراز النصر، ففي معركة حطين مثلاً، تمكن صلاح الدين من وضع أعدائه في ظروف غير ملائمة، حيث أخرجهم من صفوفية المشهورة بغزارة مياهها، ومراعيها، وموادها الغذائية، وقد أصبحوا محاصرين بعبيدين عن المياه<sup>(١)</sup> وقيل إنه أحرز النصر «للخطة العسكرية الجيدة، والسياسة الحكيمة التي اتبعها في إعداده للمعركة، ومشاركته الفعلية فيها، فقد أحسن اختيار أرض المعركة، وزمن وقوعها». وحرَم العدو من الماء. يضاف إلى هذا، جيش المسلمين الموحد، وقيادة صلاح الدين التي كانت ذات دور حاسم في إحراز النصر<sup>(٢)</sup>.

وتبدو هذه السياسة العسكرية جلية في قصده إلى تحرير المدن الساحلية قبل التوجه إلى تحرير بيت المقدس، وذلك ليحرم أعداءه من قواعدهم البحرية، فلا تصل إليهم الإمدادات من أوروبا، ويصبحون محصورين داخل بلاد الشام. ولم يتوجه إلى تحرير بيت المقدس إلا بعد أن تمكن من تحطيم قوى العدو العسكرية<sup>(٣)</sup>.

وتجدر الإشارة هنا إلى سرعة صلاح الدين في تحرير بلاد المسلمين بعد

(١) انظر: النوار السُلطانية/ ٩٦، ٩٧، الروضتين ٧٦/٢، الفتح القدسي/ ١٢ - ١٤، مفرج الكروب ١٨٩/٢ - ١٩٤، زبدة الحلب ٩٣/٣ - ٩٥، الكامل ٥٣٦/١١.

(٢) انظر: الروضتين ٧٦/٢، سنا البرق الشامي ٢١٠/١، ٢١١، صلاح الدين - جب/ ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٩٠، دراسات في حضارة الإسلام/ ١٣١، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيما ٧٣٥/٢، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، شعلة الإسلام/ ١١١، الحركة الصليبية ٧٧٣/٢، ٧٧٦، سياسة صلاح الدين/ ٣٥٩، ٢٩٤.

(٣) انظر: الحركة الصليبية ٨١٣/٢، سياسة صلاح الدين/ ٢٩٨، ٣٠٥.

معركة حطين، فقد كان يتبع أسلوب الحرب المخاطفة المباغته. وقد اعترف له أعداؤه بأنه كان يقاتل ليل نهار، ولم يدع لعدوه وقتاً للأكل والراحة<sup>(١)</sup>.

★ ★ ★

وانتهز صلاح الدين كل فرصة للعمل من أجل إضعاف العدو الصليبي، ففي حوادث أواخر سنة ٥٧٤ هـ مثلاً، ذُكر أنه عندما كان في بانياس، كان يضرم النيران عليهم، فيقضي على محصولاتهم. وذُكر أنه كان يركب كل يوم «بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلابد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا، وبيروت، حتى يحصدوا غلات العدو»، ولم يكن يبرح مكانه إلى أن يعودوا بجمالهم وأعمالها<sup>(٢)</sup>.

وفعل صلاح الدين مثل ذلك، في أوائل سنة ٥٧٥ هـ، وكان ما زال نازلاً ببانياس، «فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد»<sup>(٣)</sup>.

وفي معركة حطين، قطع المسلمون طريق ورود الماء على العدو الصليبي، فجعلوا بحيرة طبرية وراء عساكرهم<sup>(٤)</sup>.

وهكذا كان صلاح الدين يعمل للاستفادة من إلحاق الضرر الاقتصادي، وكان يعمل على إحكام الحصار الاقتصادي على مواردهم البرية والبحرية<sup>(٥)</sup>.

★ ★ ★

وكان صلاح الدين صاحب مواقف سياسية تدل على بعد النظر، فقد حاول الاستفادة من التناقضات التي كانت تبرز بين قادة الصليبيين، ومن ذلك أنه عندما اختلف القائد الصليبي في طرابلس مع الصليبيين الآخرين، حول عرش إمارة طرابلس، كتب إليه صلاح الدين، وأفرج عن فرسانه الذين كانوا في الأسر

(١) انظر: شعلة الإسلام / ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧.

(٢) ٣، ٤، كتاب الروضتين ٨/٢، ٧٧.

(٥) جيش مصر في أيام صلاح الدين ٨١ - ٨٣.

عند المسلمين، وتحسنت العلاقات بين الطرفين، مما أدى إلى انقسامات بين الصليبيين. ويعد ابن الأثير هذا العمل من أعظم الأسباب الموجبة لفتح البلاد التي كانوا يحتلونها، واستنقاذ بيت المقدس منهم<sup>(١)</sup>.

وعمل صلاح الدين على عزل الفرنجة في بلاد الشام، إذ استخدم نهجاً دبلوماسياً، وعمل على إقامة علاقات سلام مع خصومه الخارجين قبل افتتاح حملته الحاسمة، كما يذكر جب في هذا المجال<sup>(٢)</sup>.

وحاول صلاح الدين جهده اجتذاب تجارة بيزا، وجنوى، والبندقية، إلى مصر، وقد كانت تلك المصالح التجارية ذات دور كبير في الحفاظ على الدولة الصليبية في المشرق الإسلامي، كما ذكر (جب) أيضاً<sup>(٣)</sup>. ويذكر أن أحد الرحالة أعاد تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين إلى «المدن التجارية الإيطالية التي انهمكت في البحث عن الإرباح والسلع دون الاهتمام بمصالح الصليبيين ومملكتهم في بيت المقدس» كما يقول<sup>(٤)</sup>.

لقد جمعت المدن التجارية الإيطالية بين دورها في الحروب، ودورها في نقل السلع، والمتاجر، والحجاج، والمؤن والأسلحة إلى الأراضي المقدسة<sup>(٥)</sup>، ولكن النظر إلى هذا الاهتمام التجاري على أنه العامل الوحيد الذي كان سبباً في تحرير المسلمين بيت المقدس، غير دقيق.

ولعل ما تحدث عنه هذا الرحالة يعد عاملاً واحداً من عوامل عديدة، ولعله يريد أن يقلل من شأن العوامل الأخرى، وعلى رأسها القوى الإسلامية التي وحدها صلاح الدين، وقادها إلى إحراز النصر.

(١) الكامل ١١/٥٢٦، ٥٢٧.

(٢، ٣) صلاح الدين / ١٤٦.

(٤) انظر: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى / ٩، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢.

١٥٣.

(٥) انظر: نفسه / ١٣١.

جاء في رسالة للقاضي الفاضل، أرسلت إلى الديوان العزيز ببغداد، على لسان صلاح الدين، في سنة ٥٧٠ هـ، أن جيوش «البنادقة، والبياشنة، والجنوبية» كانوا تارة غزاة، وكانوا تارة أخرى «سفاراً يحتكمون على الإسلام في الاموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قرّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد»<sup>(١)</sup>.

### المقتدي بالسلف

كان صلاح الدين شبيهاً بالخلفاء المسلمين الأولين، مقتدياً بالسلف الصالح. يقول بهاء الدين بن شداد متحدثاً عن يوم وفاته: «وكان يوماً لم يُصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون»<sup>(٢)</sup>. ويصوره أبو شامة المقدسي بعمر، يقول: «رأيتُه هو ونور الدين الشهيد في المتأخرين كالعمرين في المتقدمين، فلا أبعد أنهما من الله حجة على الملوك المتأخرين»<sup>(٣)</sup>.

وكان صلاح الدين تقياً، حريصاً على إظهار شعار الشرع. وكان يحافظ على الصلوات في جماعة، كما كان يداوم على قراءة القرآن وحفظه<sup>(٤)</sup>.

وأنشأ صلاح الدين ديوان الزكاة، وألغى المكوس والضرائب<sup>(٥)</sup>. إن الواجب على من يقود حركة الجهاد، يقتضي أن تكون تلك الحركة في سبيل الله، وأن تكون مراعية لشريعة الإسلام<sup>(٦)</sup>.

(١) انظر: الروضتين ١/٢٤٣، صبح الأعشى ١٣/٨١ - ٩٠ (يذكر نص الرسالة)، السلوك ١/١٧٥، صلاح

الدين - جب / ١٤٦، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى / ١٩١.

(٢) النوادر السلطانية / ٢٤٦.

(٣) انظر: شفاء القلوب / ٦٠، ٦١.

(٤) انظر: النوادر السلطانية / ٧، ١٠، الروضتين ١/٢٦٩، ٢/٦٤، ٢١٨، ٢١٩، النجوم الزاهرة في حلى

حضرة القاهرة / ١١٢، ١١٣، ١١٤، شفاء القلوب / ٦٢، النجوم الزاهرة / ٦، ٩، طبقات الشافعية الكبرى

٣٤٠/٧، البداية والنهاية / ١٢/٢٩٦، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيان ٣/١٤٨.

(٥) خطط المقرئزي ١/١٠٨. وانظر: قوانين الدواوين / ٣١٠ - ٣١٦.

(٦) انظر: صلاح الدين - جب / ١٢٤.

ومن مظاهر تقواه أنه كان زاهداً في حياته، وهو في ذلك شبيه بالسلف الصالح. وقد وصفه رسول جاء إليه من حلب، فقال: «رأيت في خيمة صغيرة، على بساط لطيف، وتحت سجادة، وبين يديه مصحف، وهو مستقبل القبلة، وإلى جانبه زديته، وسيفه بين يديه، وقوسه وتُرْكُشُه<sup>(١)</sup> معلق في عود الخيمة، فلما رأيتُه وقع في خاطري أنه منصور، لأنني قد فارقت أصحابي، وهم على طنافس من الحرير»<sup>(٢)</sup>.

ويُذكر أنه في سنة ٥٨٤ هـ، بعد فتح حصن كوكب، مر بدمشق، وهو سائر إلى أنطربوس لفتحها، وقد وجد متولي الديوان (الصفى بن القابض)، قد أعد له داراً جميلة فلما رآها قال: ما يصنع بالدار من يتوقع الموت<sup>(٣)</sup>، وكان صلاح الدين غير مهتم بالمال، فقد ذكر أنه «ملك ما ملك، ومات»، ولم يترك في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، ومن الذهب الاجراماً واحداً صورياً، وهكذا لم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، وذكر أنه كان يقول: «إن بقيت الديار لنا، فلنا كل ما فيها، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد، واستولى عليه العدو»<sup>(٤)</sup>.

ولم يحتفظ صلاح الدين لنفسه بشيء من الغنائم، وبهذا استطاع أن يسوس رجاله ويقودهم، ويقربهم إليه، ويكون لهم قدوةً ومثالاً. لقد كان أصحابه «كأنما هم على قلب رجل واحد، محبة فيه، واعتقاداً، وطواعية»، كما يقول السبكي<sup>(٥)</sup>.

وكان صلاح الدين بسيطاً في لباسه، «لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان،

(١) التركش: الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب.

(٢) انظر: السلوك ١/٢٧١، جيش مصر في أيام صلاح الدين / ٢٩.

(٣) انظر: مرآة الزمان ٨/٣٣٣، شفاء القلوب / ٩٠.

(٤) مفرج الكرب ٢/٢٥٤.

(٥) انظر: النواذر السلطانية / ١٧، الفتح القدسي / ٦٢٩، الروضتين ٢/٢١٧، النجوم الزاهرة في حلى حضرة

القاهرة / ١١٣، ١٢٢، صلاح الدين - جب / ١٩٩.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٠.

والقطن، والصفوف»<sup>(١)</sup>.

وتحدث المؤرخون والكتاب الغربيون عن زهده، فقد ذكر (لين بول) بأنه كان قد «بالغ في زهده، وورعه، وصرف نفسه عن رغد العيش، وتجافى عن ملذات الحياة، وضيق على نفسه في جميع شؤونه ليكون قدوة لرفاقه»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر (جب) أن قاداته، ورعاياه، كانوا يدهشون بسبب «عزوفه التام عن المقتنيات الشخصية»، واعتباره الغنى شيئاً يستخدم للجهاد، أو منحة لآخرين، وكانت هذه الحقيقة مسجلة بوضوح لدى الصليبيين<sup>(٣)</sup>.

ويتردد صدى هذه التقوى، وهذا الزهد، في الشعر، ومنه الشعر الذي قيل حول الفتح القدسي، ومن ذلك ما جاء في رثاء العماد الأصفهاني للسلطان صلاح الدين، فقد تحدث عن تقواه وطاعته لربه، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:

أين السذي كانت له طاعاتنا مبدولةً ولربّه طاعاته  
بالله أين الناصرُ الملكُ الذي لله خالصةً صفتُ نياتهُ  
وهو الذي لم يثق بالدنيا العاجلة، كما يبدو في قول العماد<sup>(٥)</sup>:

طلبَ البقاءَ لملكه في آجلٍ إذ لم يثق ببقاءِ مُلكِ العاجلِ  
وكان يعمل لإرضاء ربه، كما يقول ابن جبیر مخاطباً صلاح الدين<sup>(٦)</sup>:  
وتسهرُ ليلُك في حقٍ مَنْ سِيرُضيك في جَفنِك الساهرِ  
ويصور الجلياني زهده وتقواه، في أبيات يمدحه بها عند قفوله من غزاة غزة، في سنة ٥٦٧ هـ، كما يبدو في قوله<sup>(٧)</sup>:

(١) انظر: الروضتين ٢/٢١٧، النجوم الزاهرة ٦/٨، شفاء القلوب / ٦١.

(٢) انظر: صلاح الدين - الندوي / ٣٠.

(٣) صلاح الدين / ١٢٥.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ٨٧، كتاب الروضتين ٢/٢١٥، مرآة الزمان ٨/٤٣١، النجوم الزاهرة ٦/٦٠،

شفاء القلوب / ١٨١، الأنس الجليل ١/٣٩٥.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٤٠، كتاب الروضتين ٢/٢١٧.

(٦) الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني / ٥٩٩، رحلة العبدري / ٩٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٧) كتاب الروضتين ٢/١١٥، ١١٦.

أبا المظفر فأهناً حظَّ مُنتخبُ  
زهدت فيما سبى الأملاك مُنكدرًا  
أخرى الزمانِ لدينٍ كاذبٍ يَنْبِرُ  
علمًا بملكٍ نعيمٍ ما به كَدُرُ  
وطبَّتْ نفساً عن الدنيا وزُخرفها  
وجئتَ تقدم حيثُ الهولُ والخطرُ

ويخاطبه نجم الدين بن المجاور قائلًا<sup>(١)</sup>:

فخذ الخراج من البسيطة كُلِّها واستأد فرضي جزيةً وموظفٍ  
واقبض على الدنيا بكفٍ زهادةٍ وابسط لرحمتها جناحَ تعطفٍ

★ ★ ★

وكان صلاح الدين وقوراً، متواضعاً لم يتكبر على أحد من أصحابه . وكان يحسن معاملة مجالسيه . وكان قريباً من الناس، رحيماً، بهم، متسامحاً يستجيب للصفح والعفو<sup>(٢)</sup> . وكان يتحلى بالتسامح والوفاء مع أهل البلاد التي كان يحررها، ويعاملهم معاملة حسنة<sup>(٣)</sup> . وكان وفياً يحافظ على العهود والمواثيق<sup>(٤)</sup>، وخير مثال يذكر في هذا المجال معاملة العدو الفرنجي بعد الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ<sup>(٥)</sup> .

ويتردد صدى هذا في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي ، ومن ذلك ما جاء في قصيدة لابن الساعاتي ، يمدح فيها السلطان صلاح الدين ، عند فتحه البيت المقدس ، وفيها يشيد به في عفوه ، وإحسانه ، وصفحه ، كما يبدو في قوله<sup>(٦)</sup>:

(١) كتاب الروضتين ١٠٤/٢ .

(٢) انظر: النوادر السلطانية / ٢٨ - ٣١ ، ٣٤ ، الروضتين ٢٢٣/٢ ، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة / ١٣٦ ، وفيات الأعيان ٢٠٧/٧ ، الكامل ٩٧/١٢ ، النجوم الزاهرة ٨/٦ ، ٩ ، ١١ ، شفاء القلوب / ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٢ ، ١١٥ ، مضممار الحقائق / ١٣٧ ، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ١٤٨/٣ .

(٣) النوادر السلطانية / ٣١ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣٧/٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٨/٧ .

(٥) انظر: الروضتين ٩٢/٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، وفيات الأعيان ١٨٨/٧ ، الكامل ٥٤٩/١١ - ٥٥١ ، شفاء القلوب / ١٢٨ ، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٧٥٢/٢ ، ٧٥٣ ، شعلة الإسلام / ١٢٣ ، الإسلام والحضارة

العربية ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، تاريخ فلسطين القديم / ١٧٥ ، الحركة الصليبية ٧٨٠/٢ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٩ ، صلاح الدين - جب / ١٤٩ ، سياسة صلاح الدين / ٣٠٩ .

(٦) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٧/٢ .

له عَيْنٌ حُسْنِي لَا يُلْمُ بِهَا الْكُرَى      وَأُذُنٌ سَمَاحٍ لَمْ تَزَلْ تَسْمَعُ الْوَهْمَا  
أَجْلُهُمْ نَفْسًا وَأَشْرَفُ هَمَّةً      وَالسِّينُهُمْ خُلُقًا وَأَصْلُبُهُمْ عَجْمَا  
لِإِحْسَانِهِ بَرَهَانَ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمٍ      يَقِينًا فَكَمْ أَحْيَا وَكَمْ أَنْطَقَ الْبُكْمَا

ويصوره العماد الأصفهاني في إحسانه، كما يبدو في قوله من قصيدة  
قدسية، هنا بها السلطان بفتح بيت المقدس، وهو مخيم عليه<sup>(١)</sup> :  
سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى وَشِمَّتُهُ الرُّضَى      وَبَطَّشْتُهُ الْكُبْرَى، وَعَزَمْتُهُ الْقَعْسَى

ويتحدث العماد عن مناقبه، في رثائه له، فيشيد به في سماحته، كما يبدو  
في قوله<sup>(٢)</sup> :

دُفِنَ السَّمَاحُ فَلَيْسَ تُشْرَرُ بَعْدَمَا      أَوْدَى إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ رُفَاتُهُ  
ويصور فتيان الشاغوري الممالك تبنى بنعال صلاح الدين من عدل،  
وإحسان، ومعروف، وغيرها من الفعال، كما تقدم، ويصور الشاغوري تواضع  
صلاح الدين فيقول<sup>(٣)</sup> :

مَتَوَاضِعًا لِلَّهِ جَلًّا      وَبِكَ اضْمَحَلَّتْ سَطْوَةُ الْمَتَكَبِّرِ  
وكان صلاح الدين صاحب مروءة، كريماً يعطي في حالتي السعة والضيق،  
ولم يترك في خزائنه شيئاً يذكر<sup>(٤)</sup>

ويتردد صدى كرمه، وشهامته، ومروءته في الشعر الذي قيل في الفتح  
القدسي . ويفضل ابن الساعاتي صلاح الدين في جوده على الغيث الهون، كما  
يبدو في قوله<sup>(٥)</sup> :

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣١، كتاب الروضتين ١٠١/٢ .

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٨٨، كتاب الروضتين ٢/٢١٥، الألس الجليل ١/٣٩٥، شفاء القلوب/ ١٨٢ .

(٣) ديوان فتیان الشاغوري/ ١٤٧ .

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ١٧، ٣١-٣٣، مفرج الكروب/ ٢/٢٤٢، الروضتين ٢/٢١٧، ٢٢٠، الكامل

٩٦/١٢، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٢٣، النجوم الزاهرة ٦/٥٢، شفاء القلوب/ ٦١،

٦٢، صلاح الدين - جب/ ١٢٥، ١٩٩، شعلة الإسلام/ ٧٣ .

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٧ .

إبَاءٌ كَمَا أَفْنَى الْعِدَا أَوْجَدَ الْهَدَى      وَجُودٌ كَمَا أَحْيَا الْغَنَى قَتَلَ الْعُدْمَا

ويفصل فتیان الشاغوري في الحديث عن كرمه، ويصوره بحراً في جوده، بل بحاراً، ويجمع الشاعر بين وصفه بالجود والشجاعة والفرات، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:

تَنْهَلُ يُمْنَاهُ بِجَسَدَوَاهُ فَخَمَ      سُنُّ بِنَانِهِ لِلخَلْقِ خَمْسَةٌ أَنْهَرِ  
كَالنَّيْلِ فِي مَصْرِ وَسِيحُونَ وَجِيحَ      سُونَ وَدَجَلَةَ وَالْفِرَاتِ الْأَكْبَرِ  
الْبَحْرُ أَنْتَ لِكَ السَّوَاخِلِ بَاعِثَا      سُحِبَ الْحَيَا جُوداً وَقَاذِفَ جَوْهَرِ  
فَبِمِ الْعُفَاةِ يُشْبِهُونَكَ فِي النَّدَى      وَالْبَأْسَ حَارَتْ فِكْرَةُ الْمُتَفَكِّرِ  
كَمْ خَازِنٍ لِكَ مِثْلُ الْفِي حَاتِمِ      كَرَمًا وَمَمْلُوكِ كَالْفِي عَنْتَرِ

ويصوره العماد الأصفهاني، في قصيدة قدسية أنشدها يوم فتح القدس، بأنه أكثر الناس كرمًا، كما يبدو في قوله<sup>(٢)</sup>:

قُلْ لِلْمَلِكِ صَلَاحِ الدِّينِ أَكْرَمَ مَنْ      يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ أَوْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَرَسَا  
وقوله<sup>(٣)</sup>:

رَأَيْتُ صَلَاحَ الدِّينِ أَفْضَلَ مَنْ غَدَا      وَأَشْرَفَ مَنْ أَضْحَى، وَأَكْرَمَ مَنْ أَمْسَى  
وَقِيلَ لَنَا فِي الْأَرْضِ سَبْعَةُ أَبْحَرِ      وَلَسْنَا نَرَى إِلَّا أَنْأَمْلُهُ الْخَمْسَا

★ ★ ★

وكان صلاح الدين عادلاً ناصراً للضعيف، وكان يجلس في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يهضره الفقهاء، والقضاة، والعلماء<sup>(٤)</sup>. وعني باختيار

(١) ديوان فتیان الشاغوري / ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ١٩٨ - ١٩٩، كتاب الأبيات / ١٠٢ / ١.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ١٩٧ - ١٩٨، كتاب الترويض / ١٩٧ - ١٩٨، معجم الأبيات / ١٩ / ٢٤، شفاء القلوب /

١٥٠، عمدة الجلال / ٢٥، حروف سنة ٥٨٣ هـ.

(٤) النفر - النهر السلطانية / ١٠٣ - ١٠٤، الروضتين / ٢٥٢١، ٢٦٩، ١٠ / ٢، ١٩، ٦٩٩، النجوم

الزاهية / ١٠، حلى حضرة القاسم / ١٥، مضمون الحقائق / ١٠٦، النجوم الزاهرة / ١٠ / ٦، شفاء القلوب /

١٠، ٦١، ٦٢، طبقات الشافعية الكبرى / ٧ / ٣٤٧، ٣٦٨.

القضاة، وكان يعمل وفق أحكام القضاء، ويتمثل لأوامره ونواهيه. يذكر ابن جبير أنه قال لأحد المقربين إليه: «ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم. والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه متمثلة، إنما أنا عبد للشرع وشحنته، فالحق يقضي لك أو عليك»<sup>(١)</sup>.

ويتردد صدى عدله في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي، ومن ذلك ما يقوله الشاعر ابن الساعاتي، في قصيدة قدسية قالها عند فتح البيت المقدس، مشيداً بصلاح الدين في عدله<sup>(٢)</sup>:

فللحق شمسٌ لا تغام بباطلٍ      وللعادل فيه آية تنسخ الظلما  
يعزُّ على الأحداث وطءٌ بلاده      فلو صدَّ حُبُّ لم يجد عاشقٌ همَّما

ويصور الشاعر فتیان الشاغوري عدل صلاح الدين واحداً من المقومات التي تبنى بها الممالك، كما تقدم.

ويصوره العماد الأصفهاني عادلاً ناصراً للحق كما يدو في قوله مخاطباً ابني صلاح الدين: الأفضل، والعزیز، في مرثيته للسلطان<sup>(٣)</sup>:

أبني صلاح الدين إن أساكم      ما زال يابى ما الكرام أبائهُ  
لا تقتدوا إلا بسنة فضله      لتطيب في مهد النعيم سنائهُ  
وردوا موارد عدله وسماحه      لترد عن نهج الشمات شمائهُ

★ ★ ★

## راعي المسلمين

عني صلاح الدين بالمجتمع الإسلامي عناية كبيرة، ورعاه مدركاً أن تلك الرعاية واجبة شرعياً. وواجبة لتهيئة المجتمع تهيئة حقيقية للوقوف في وجه العدوان الصليبي. وكان يراسه في هذا كتاب الله، وسنة رسوله، وما رسمه مصدرنا التشريع الإسلامي من مواقف واضحة ثابتة في هذا المجال. وكان يهتدي بما جرى عليه صحابة الرسول، وخلقناؤه الراشدين<sup>(٤)</sup>.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٧/٢.

(١) رحلة ابن جبير / ٢٩٨.

(٤) انظر: نور الدين - الرجل والتجربة / ٩٣.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ٩٢.

كان صلاح الدين راعياً للمسلمين، ودينهم، وأموالهم، ويبدو مثل ذلك متمثلاً في حديثه مع أخيه الملك العادل، وكان العادل قد طلب منه أن «يكتب له بمدينة حلب، ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان. وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً». وقال صلاح الدين لأخيه: «أظننت أن البلاد تباع؟ أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين، ورعاة للدين. وحراس لأموالهم»<sup>(١)</sup>. ومن هذا يتضح كيف كان صلاح الدين ينظر إلى بلاد الإسلام، ووجوب رعايتها رعاية حقة. وكيف كان يعمل على حماية المسلمين وحقوقهم. كان صلاح الدين حريصاً على رعاية الفقراء والمساكين<sup>(٢)</sup>، وكان يوصي بتقوى الله، واتباع أوامر الشرع، واجتناب نواهيه، والعمل على استمالة الرعية، والابتعاد عن سفك الدماء. ويبدو مثل ذلك جلياً في وصية كتبها لابنه الملك الظاهر في دمشق، في سنة ٥٨٨ هـ، يقول: «أوصيك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وأمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها، والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر في أحوالهم، فأنت أمني، وأمين الله عليهم»<sup>(٣)</sup>.

ورعى صلاح الدين المسلمين اقتصادياً، فقد أسقط المكوس الديوانية في مصر، بعد توليته الوزارة، وأعلن حرية التجارة، في منشور قرىء من فوق المنابر<sup>(٤)</sup>. وكان أول عمل قام به في دمشق، هو إزالة المكوس اتباعاً لأمر الشرع، كما يبدو في كتاب فاضلي، في سنة ٥٧٠ هـ يقول فيه: «فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها»<sup>(٥)</sup>.

ويذكر العماد الأصفهاني أن السلطان أبطل المكوس الذي كان مفروضاً في

(١) انظر: الروضتين ٥٢/٢.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٨، ٣٤، الروضتين ٦٥/٢، ٦٦، ٢١٨، النجوم الزاهرة ١١/٦، شفاء القلوب/ ٦٢، ٦٥، صلاح الدين - جب/ ١٤٤، ١٩١.

(٣) انظر: زبدة الحلبي ١٢٣/٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢٠٥/١.

(٥) انظر: نفسه ٢٣٦/٢.

مكة على الحاج، في ٥٧١ هـ، و ٥٧٤ هـ. وكشف «عن حلب المظالم بعد فتحها، وأزال المكوس»، وقد أصدر كتاباً بذلك كتبه القاضي الفاضل، في سنة ٥٧٩ هـ<sup>(١)</sup>. ويبين كتاب القاضي الفاضل، مدى حرص صلاح الدين على رعاية الأمة، كما يبدو في الكتاب الفاضلي: «وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوماً استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار». وهو حريص كل الحرص على إبعاد الضرر عن الرعية، كما كان حريصاً على السير في طريق الشرع. ويتحدث في الكتاب الفاضلي، عن أنواع من الضرائب رأى أن «نضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ما هو أهدي سبيلاً، ونقول ما هو أقوم قيلاً، ونكره ما كره الله، ونحظر ما حظره الله». كما أصدر منشوراً لأهل الرقة كتبه القاضي الفاضل أيضاً، وورد فيه أن «يعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين». ومما جاء في ذلك المنشور قول يتضمن نقداً سياسياً اجتماعياً لأولئك الذين كانوا ينحرفون عن طريق الشرع، وفيه: «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه، وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس، وسماه الحق». وقد كان هذا دأبه، إذ اقتصر على الرسوم التي يبيحها الشرع<sup>(٢)</sup>.

وعمل صلاح الدين على إنشاء المؤسسات الاجتماعية التي ترعى المسلمين في حياتهم، في مسكنهم، وملبسهم، ومأكلهم، ومشربهم. وصحتهم، وفكرهم، فقد أنشأ اليمامارات، والمدارس والخوانق، والرباطات، والأسواق، والقناطر، والحمامات، والخانات، وغيرها. ووقف الأوقاف على ما أنشأه من مؤسسات، وذلك لتسيير شؤونها الاجتماعية، والفكرية، وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

شهدت مصر والشام نشاطاً فكرياً كبيراً في ظل السلطان صلاح الدين،

(١) انظر: الروضتين ١/٢٧٠، ٢/٣، ٤، ٤٧، سنا البرق الشامي / ٣٠٤. مرآة الزمان ٨/٣٣٨، البداية والنهاية ١٢/٢٩٩.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٤٧، ٦٩، البداية والنهاية ١٢/٣١٣، ٣١٤.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٦٩، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، المدارس في بيت المقدس.

وشمل ذلك النشاط الفكري مدينة بيت المقدس، وقد نالت مدينتنا المقدسة عناية خاصة في هذا المجال، في ظل صلاح الدين الأيوبي.

كان صلاح الدين ذا عناية كبيرة بالعلم وأهله، وكان يهتم بالحديث والمحدثين، والفقه والفقهاء، والوعظ والوعاظ، والتصوف والمتصوفة، والشعر والشعراء، والكتابة والكتّاب، والخطابة والخطباء، وغيرهم من أرباب العلم والثقافة والفكر.

وكان صلاح الدين يحب العلماء ويقربهم، ويحسن إليهم، وكان شغوفاً بمجالسة خواصه من العقلاء وكان مجلسه لا يخلو من ذوي الفضل والنباهة، وكانوا «يتجادبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية، ومسائل فقهية، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في احاديث الأجواد، وشيم الأمجاد» كما يذكر العماد الأصفهاني<sup>(١)</sup>.

وكان صلاح الدين يذاكر في الأدب والأشعار والفقه، وكان «يستحسن الأشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيراً ما ينشد» أشعاراً تعجبه. ويذكر أنه كان شغوفاً بأشعار أسامة بن منقذ. وكان يمنح الشعراء الجوائز القيمة<sup>(٢)</sup>.

كان صلاح الدين قد نشأ وترعرع في ظل الثقافة الإسلامية في بعلبك، ودمشق، ودرس القرآن، والحديث، والفقه. وكان يحب سماع القرآن، كما كان «شديد الرغبة في سماع الحديث. وكان يتردد إلى الحافظ السلفي في الاسكندرية، وكان يستمع إلى دروس عبدالله بن أبي عصرون في الجامع الأموي، وقيل إنه كان يحفظ القرآن. وكان يحفظ كتاب «التنبيه» في الفقه،

(١) انظر: الروضتين ٢/٦٥، سنا البرق الشامي (ط بيروت) ١/٢٣٣ - ٢٣٤، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، شفاء القلوب/ ١٩٠.

(٢) انظر: كتاب الروضتين ١/٢٤، ٢٦٤، خريدة القصر ١/٧٨، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، ٢٠٨، النجوم الزاهرة ٦/٥٦، شفاء القلوب/ ١٩٠، ١٩١، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٢٥، ٢٦.

وكتاب الحماسة في الشعر»<sup>(١)</sup>.

يذكر العماد الأصفهاني أنه «عين لسماح الاحاديث النبوية ميقاتاً، وجمع به من أهل العلم والعلماء أشتاتاً، وقد هنأ القاضي الفاضل برحلته في سبيل العلم، وسماعه موطأ مالك، في رسالة كتبها إليه»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٧، ٩، ١٠، كتاب الروضتين/ ١، ٢٦٩، ١٨/٢، ٢٤ - ٢٥، ٢١٧، ٢١٩، طبقات الشافعية الكبرى/ ٧، ٣٤٧، ٣٤٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٤، البداية والنهاية/ ١٢، ٣٠٨، شفاء القلوب/ ٦١، ٦٣، ٩٨، السلوك/ ١، ٤٢ - ٤٣.

(٢) انظر: الروضتين/ ٢، ٢١، ٢٤ - ٢٥.

## صورة محتلي بيت المقدس

يصور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي الفرنج الذين غزوا العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين عدواً استعمارياً غازياً، قدم تحت شعار الصليب للقضاء على الإسلام والمسلمين، واحتلال بلادهم في مصر والشام، وهذا هو ما قام به آنذاك، وأنشأ مستعمرات وإمارات صليبية، وهي إمارة الرُّها، وإمارة إنطاكية وإمارة طرابلس، كما أنشأ مملكة بيت المقدس، وجعل مدينة بيت المقدس عاصمة له، وكانت تحدوه أهداف وغايات مختلفة، وهي أهداف وغايات سياسية، واقتصادية، واجتماعية ودينية.

ويصور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي العدو الصليبي المحتل ناشراً للخراب والدمار، وسافكاً للدماء، وهاتكاً الاعراض، وناهباً وسالماً في بلاد المسلمين، وقد ارتكب المجازر في بيت المقدس، واصبحت خالية من سكانها المسلمين<sup>(١)</sup>.

وقد عمل الفرنج على تغيير معالم بلاد المسلمين سياسياً، واقتصادياً، وحضارياً، وفكرياً، ودينياً، ويصور الشعر ذلك تصويراً مؤثراً مستنهضاً الهمم، فالأعداء الصليبيون الغازون يفسدون ويفتكون، ويقتلون، وينشرون ذلك كله في بلاد المسلمين، وهذه هي طبيعتهم كما يقول ابن الخياط الدمشقي مصوراً جيوش الفرنجة الذين غزوا بلاد المسلمين في الشام<sup>(٢)</sup>:

بنو الشُّركِ لا ينكرون الفسادَ      ولا يعرفون مع الجورِ قَصداً  
ولا يَزِدُّون عن القتلِ نَفْساً      ولا يتركون من الفتلِ جُهْداً  
فكسُم من فتاةٍ بهم أصبحت      تدقُّ من الخوفِ نحرًا وخذاً

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق / ١٣٧، النجوم الزاهرة ١٤٩/٥، الأنس الجليل ٣٠٨/١، القدس الشريف في

تاريخ العرب والإسلام / ٢١، المفصل في تاريخ القدس / ١٥٦-١٥٨، العرب والروم واللاتين / ٢٦٥.

(٢) ديوان ابن الخياط الدمشقي / ١٨٤، ١٨٥.

وانظر مثل ذلك في: كتاب الروضتين ١٠٧/٢، النجوم الزاهرة ١٥١/٥ - ١٥٢.

وَأَمْ عَوَاتِقُ مَا إِنْ عَرَفْنَ حَرّاً وَلَا دُفْنَ بَرِّدَا  
تَكَادُ عَلَيْهِنَ مِنْ خِيفَةٍ تَذُوبٌ وَتَتَلَفُ حُزْناً وَوَجِدَا

ويصور القاضي أبوسعده الهروي (وقيل الأبيوردي) ما فعله العدو الغازي بالمسلمين في بيت المقدس من هوان، وقتل، وهتك أعراض، كما تقدم في الفصل الأول.

ولم يردع العدو الصليبي الغازي رادع عما فعله من افعال قبيحة منكرة دون مراعاة لمكانة بيت المقدس، وهي أعمال لا تقرها شريعة، كما تقدم في الفصل الأول أيضاً.

ويصور العماد الأصفهاني ما كان الفرسان الداوية قد قاموا به من تغييرات بالأقصى<sup>(١)</sup>. كما يصور ما كان الفرنج قد فعلوه بالصخرة المقدسة، فذكر أنهم كانوا قد غيروا رسومها، وبنوا عليها كنيسة ومدبحاً، وستروها بالأبنية، وزينوها بالصور والتمائيل<sup>(٢)</sup>.



ويصور الأدب العربي العدو الغازي أهل كفر وشرك، ويظهر في هذا المجال الصراع في العقيدة جلياً بين المسلمين والفرنج الغزاة، وقد كانت هذه الحروب حروباً دينية في بعض جوانبها، إذ هدف الفرنج إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، وبدا ذلك واضحاً من الخطاب الأول الذي أصدره البابا، موجهاً الغزاة إلى المشرق الإسلامي، فهم بنو الشرك كما يصورهم الشاعر ابن الخياط الدمشقي كما تقدم، وهم الذين ألبسوا بيت المقدس ثياباً من الكفر باحتلالهم المدينة المقدسة، وقد بقيت كذلك إلى ان نزع صلاح الدين ذلك اللباس عنها، وألبسها ثياب الإسلام والايمان<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: سنا البرق الشامي / ٣١٤، الفتح القدسي / ١٣٧، الروضتين ١٠٧/٢، ١٠٩.

(٢) انظر: سنا البرق الشامي / ٣١٥، الفتح القدسي / ١٤١، الروضتين ١١٣/٢.

(٣) انظر ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٢.

ويصور ابن سناء الملك كيف صمتت أصوات الكفر وأهله بعد النصر العظيم الذي أحرزه المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:

واستحالت شقاشق الكفر صمتاً حين عادت تلك الشجاعة جينا

ويصور العماد الأصفهاني ما كان أسد الدين شيركوه يبعثه في نفوس أهل الشرك، كما يبدو في قوله من قصيدة يهنيء بها أسد الدين لما استقل بالوزارة في مصر<sup>(٢)</sup>:

في حَلَقِ ذِي الشُّرْكِ من عدوى سطاك شجى

والقلبُ في شَجَنَ والنَّفْسُ في شَجَب

ويصور ابن الساعاتي ما أحس به أهل الشرك بعد هزيمتهم أمام المسلمين بقيادة صلاح الدين، فيقول<sup>(٣)</sup>:

ففي لَهَوَاتِ الشُّرْكِ أُرْسِلُها شَجِيٌّ وفي جبهة الايام غادرها وَسَمًا

ويصورهم العماد الأصفهاني عصبه للشرك، كما يبدو في قوله من قصيدة يمدح فيها تقي الدين عمر، في سنة ٥٨٢ هـ<sup>(٤)</sup>:

إذا ما تقي الدين صالَ تساقَطَتْ لأقدامه من عُصْبِ الشُّرْكِ أُرُوسُ

ويصور العماد كيف أمت صلاح الدين الشرك وأهله، وأحيا الهدى وأهله، وقمع طواغيت ذلك الشرك ورموزه، ونفاها من بيت المقدس، مثلما نفيت الأوثان من مكة بعد تحريره القدس<sup>(٥)</sup>.

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٨١٧، مفرج الكروب ٢/ ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٩١.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٨٠، كتاب الروضتين ١/ ١٥٩، مفرج الكروب ١/ ١٦٦، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/ ٤٥.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/ ٣٨٥.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٩، كتاب الروضتين ٢/ ٧١، ٧٢، سنا البرق الشامي / ٢٨٢.

(٥) انظر ديوان العماد الأصفهاني / ٧٦.

وتبدو هذه الصورة جلية في النثر الفني الأدبي ، فيما كتبه القاضي الفاضل ،  
والعماد الأصفهاني ، وضياء الدين بن الأثير ، ومحبي الدين بن الزكي .

يصور القاضي الفاضل العدو الصليبي كافرأً تقلص ظل رجائه وقد كان  
مبسوطاً قبل الفتح القدسي . ويصور ما آلت إليه بيوت الشرك وطوائفه ، وهم  
اصحاب الشمال ، إذ يبين كيف نقل الله «بيت المقدس من أيدي أصحاب  
المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة» ، وكيف جعل ضلوع الكفار لنار جهنم  
وقوداً ، كما يصور كيف ارتفعت كلمة التوحيد ، وكانت طرائقها مسدودة ، وكيف  
أقيمت الصلوات الخمس ، وجهرت الألسن بالله اكبر<sup>(١)</sup> .

ويصورهم محبي الدين بن الزكي ، في خطبته القدسية التي كانت أول  
خطبة خطب بها في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال الصليبي ، بأنهم  
أهل الشرك والكفر الذين أذلهم صلاح الدين وقهرهم ، ودحض شركهم  
وإفكهم ، كما يصورهم بالأمّة الضالة<sup>(٢)</sup> .

ويرز الصراع في العقيدة جلياً بين المسلمين ، والعدو الصليبي الغازي ،  
وقد برز هذا الصراع في الشعر جلياً ، ومن ذلك ما قاله نجم الدين يوسف بن  
الحسين بن المجاور<sup>(٣)</sup> كما تقدم .

ومنه ما قاله مجد الدين محمد بن الظهير الأربلي مشيداً بالأيوبيين<sup>(٤)</sup> :

هُم نَصَرُوا التَّوْحِيدَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا      بِهِ عَزَّ فِي الْأَفَاقِ كُلِّ مُوَحَّدٍ  
وَهُمْ قَهَرُوا غُلَبَ الْفَرَنْجِ بِأَسْهُمٍ      فِدَانُوا لَهُمْ بِالرَّغْمِ لَا عَن تَوَدُّدٍ  
وَرَدُّوا إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ نُورَهُ      وَقَدْ كَانَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّرْكِ أَسْوَدُ

(١) انظر مفرج الكروب ٣/٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٢٤٢ ، وفيات الأعيان ٧/١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، صبح

الأعشى ٦/٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٢٨٢/٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، شفاء القلوب / ١٤٣ .

(٢) انظر : الروضتين ٢/١١٠ ، مفرج الكروب ٢/٢٢١ ، الأعلام الخطيرة - لبنان والأردن وفلسطين / ٢١٣ ،

كنز الدرر ( الدر المطلوب ) ٧/٨٧ ، شفاء القلوب / ١٣٢ .

(٣) انظر كتاب الروضتين ٢/١٠٣ .

(٤) نفسه ١/١٩٦ .

هاجم الشعراء المسلمون العدو الصليبي الغازي، في عقيدته، ومما يصور هذا ما قاله الحكيم أبو الفضل عبدالمنعم بن عمر بن حسان الجلياني، مشيداً بمنقذ القدس من ناحية، وساخراً من العدو الصليبي، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:

يا مُنقِذَ القدس من أيدي جبابرة      قد أقسموا بذراع الربّ تَدْخُلُهُ  
فما كذبوا كذبهم في وصف ربهم      وصدّق الوعد مأموناً محوّلُهُ  
لما سبى القدس قالوا كيف نتركها      والرب في حفرة منها تمثله  
فكم ملك لهم شق البحار سرى      لينصروا القبر والأقدار تخذله

ولأنهم أهل شرك، فإننا نجد العماد الأصفهاني، يصورهم بأنهم أمة النار، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين من قصيدة قدسية<sup>(٢)</sup>:

بَعَثَتْ إِمَامَ أمةِ النار نحوها      فزارَ أمامَ أرناطها ذلك الحَبْسَا  
ولله نَصُّ النُّصْر جاء لنصلِهِ      فلا قُونَساً أبقي ولا قِنَسَا

وبرز هذا الصراع جلياً في النثر أيضاً، ومن ذلك ما جاء في رسالة قدسية كتبها القاضي الفاضل، إلى الخليفة العباسي في بغداد، على لسان السلطان صلاح الدين<sup>(٣)</sup>.

ويصور العماد، في كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن كتبه على لسان صلاح الدين، إلى أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب، في اليمن، ما كان عليه بيت المقدس في ظل الاحتلال الصليبي، وقد بقي كذلك إلى أن استفتحته المسلمون في سنة ٥٨٣ هـ، وذلك بنهوض الأمة المحمدية إلى الكفر سرية سرية<sup>(٤)</sup>، للقضاء على أهل النار، كما يصور العماد الصراع في

(١) كتاب الروضتين / ١٥١/٢، وانظر ذلك في: ديوان ابن سناء الملك / ٨١٨، مفرج الكروب / ٢٣٤/٤، كنز

الدرر (الدر المطلوب) / ٩١/٧، الروضتين / ١٠٥/٢، ديوان طلائع / ٦٣، ديوان أسامة / ١٦٥.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٦، كتاب الروضتين / ٨٣/٢، ٨٤.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام / ١٧٣، ١٧٤، الدر النظيم / ٢١، مفرج الكروب / ٣٣٨/٣، وفيات الأعيان

١٨٢/٧، صح الأعشى / ٤٩٩/٦

(٤) الفتح القدسي / ١٩١، ١٩٢.

العقيدة مرتبطاً بالصراع العسكري<sup>(١)</sup>.

ويصور القاضي محيي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية، ذلك الصراع في العقيدة، كما يبدو في حديثه عن عبودية المسيح عليه السلام، وهو الذي كرمه الله بنبوته، «فلم يزحزحه عن ربه عبوديته»، ويشيد بالمسلمين الذين حرروا بيتهم المقدس من معالم الشرك، كما يبدو في قوله: «وشكركم الملائكة المنزلون على ما اهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد<sup>(٢)</sup>».

★ ★ ★

ويصور النثر الفني القدسي الاعداء الصليبيين بأنهم أهل رجس وآثام، وقد اقترن هذا مع الدعوة إلى تطهير بيت المقدس، وأهله، ومقدساته، من الشرك والرجس، والآثام، ومن ذلك قول الحافظ ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، مهنتاً نورالدين زنكي بدخول مصر، وحثاً على تحرير بيت المقدس، وكان ذلك في سنة ٥٦٤ هـ<sup>(٣)</sup> كما تقدم.

ويدعو العماد الأصفهاني إلى تطهير القدس من الغزاة الصليبيين ورجسهم، كما يبدو في قوله مادحاً نورالدين ومهنتاً بملك مصر<sup>(٤)</sup> كما تقدم.

ويشيد العماد بالسلطان صلاح الدين، إذ استطاع تطهير بيت المقدس من رجس الصليبيين<sup>(٥)</sup>، ويركز الشعراء على الدعوة إلى تطهير المسجد الأقصى من دنس العدو الصليبي الغازي، ومن ذلك قول ابن منبر الطرابلسي، مادحاً

(١) انظر الفتح القدسي / ٦٤.

(٢) انظر: الروضتين / ١١١/٢، مفرج الكروب / ٢٢٢/٢، ٢٢٤، وفيات الأعيان ٣/٣٦٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) / ٨٧/٧، شفاء القلوب / ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.

(٣) انظر: خريدة القصر - قسم شعراء الشام / ٢٧٧/١.

(٤) انظر: ديوان العماد الأصفهاني / ٣٢٦، ٣٨٢، الروضتين / ١/١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، مفرج الكروب / ١٧٥/١، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/٧٢، خطط المقرئ / ١٩/٢.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني / ٢١٢، كتاب الروضتين / ١٠١/٢، ١٠٢.

نورالدين زنكي، في سنة ٥٤٦ هـ<sup>(١)</sup> :

آثارهم نجس أزال المسجد الـ أقصى فصن ما دُنسوه وطهر

وقوله مادحاً نورالدين أيضاً، ومهنتاً بفتح انطرطوس، وحاتاً على تدمير العدو

الصليبي وتطهير الأقصى أيضاً<sup>(٢)</sup> :

ألقى العصا فيمن أطاعَ ومنَ عصى منهم ودمر أرضهم تدميرا

لا يُلهمهم أن قد مننتَ وشنتها شغواء تصلى الكافرين سعيرا

باكِرْ بِرِكَزٍ قَنَأُ تُنَسِّفُ أُسْهََا وَالخَيْلُ صُورُ كِي تُزِيرُكُ صُورَا

وتريك لامةة التريك بساحة الـ أقصى مطهرة لها تطهيرا

ويصور أبوعلي الحسن بن علي الجويني تطهير بلاد المسلمين من الشرك

وأهله في نصف شهر، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين<sup>(٣)</sup> :

في نصف شهر غداً للشرك مُصْطَلِمًا فَطَهَّرْتُ مِنْهُ أَقْطَارًا وَبُلْدَانًا

وبهذا خلت ساحات بيت المقدس، ومقدساته من بني الأصفر، كما يبدو

في قول الحكيم ابي الفضل الجلياني، من قصيدة قالها مهنتاً السلطان صلاح

الدين بعافيته في سنة ٥٨٢ هـ، ورابطاً بين النصر في بيت المقدس، وفتح أم

القرى<sup>(٤)</sup> :

إذا صفرتُ من آل الاصفر ساحة الـ قدس ضاهت فتح أم القرى قدما

وقوله في مستهل قصيدة أخرى أنشأها في السنة ذاتها<sup>(٥)</sup> :

الله أكبر أرضُ القُدسِ قد صفرت من آل الاصفر إذ حين به حانوا

وبهذا أصبح العدو الغازي المحتل عبرة لغيره، كما يبدو في قول الرشيد

النايلسي، من قصيدة في الفتح القدسي<sup>(٦)</sup> :

(١) كتاب الروضتين ٧٨/١ .

(٢) نفسه ٨٦/١، ٨٧ .

(٣) نفسه ١٠٤/٢، ١٠٥ .

(٤) نفسه ١١٦/٢، وانظر ص ٤١ من هذا البحث .

(٥) كتاب الروضتين ١١٨/٢، شفاء القلوب / ١٦٦، ١٦٧ .

أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً      فيها لاعدائك الآيات والنذرُ  
صاروا حديثاً وكانوا قبلُ حادثةً      على الورى يتقيها البدو والحضرُ  
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها      حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر  
هو الذي سلب الأفرنج دولتهم      ومملكهم يا ملوك الأرض فاعتبروا

★ ★ ★

ويبدو تصويرهم بأنهم أهل رجس وآثام جلياً في النثر الأدبي، فالقاضي  
الفاضل يصور الأرض طامثة في ظل الاحتلال الصليبي كما يبدو في قوله، في  
رسالته القدسية: «وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث».

ومثل ذلك ما جاء في رسالة كتبها إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد  
المؤمن، في سنة ٥٨٥ هـ، على لسان صلاح الدين، مستنجداً، فقد ذكر أنه  
طهر بيت المقدس «ممن كان يعارض برجسه تقديسه، ويزعج بيناء ضلاله  
تأسيسه». ويصور بيت المقدس جنة الإسلام، ولكن المسلمين خرجوا منها  
«خروج أبيهم آدم من الجنة». «وأعقبهم فيها إبليس الكفر»<sup>(١)</sup>. ويدعو العماد  
الأصفهاني إلى تخلص الأقصى وتطهيره من الكفر وأهله، يقول في حديثه عن  
فتح بيت المقدس: «... وإقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الأقصى،  
وجذب قياد فتحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكيف  
كف الكفر عنه بأيمان الايمان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس  
أدنى الناس».

ويبدو مثل هذا جلياً في حديثه عن غاية صلاح الدين في توجهه إلى بيت  
المقدس، يقول: «وقصده استئصال نبات الشرك وحصده من أرض الله تعالى،  
وتقدس بتطهير الأرض المقدسة بإهلاك الطائفة الطاغية». ويصور تطهير مواقف  
الأنبياء من أدناس الأرجاس كما جاء في رسالته القدسية التي كتبها إلى الديوان  
العزیز في بغداد مبشراً بفتح القدس<sup>(٢)</sup>. ويصور العماد القدس وقد تقدست من

(١) مفرج الكرب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٥٧٨.

(٢) انظر: الفتح القدسي / ١١٦، ١١٧، ١٣٦، ١٤٧، ١٤٨، ٣٠٩، ٥٨٠.

رجس الفرنج كما يبدو في رسالته القدسية التي كتبها إلى الديوان العزيز ببغداد مبشراً بفتح القدس<sup>(١)</sup>.

ويصور «حبي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية، تطهير بيت المقدس من «أدناس الشرك وأوصاره». ويقرن ذلك بالدعوة إلى تطهير الأرض، واجتثاث أصول الكفر وفروعه، استجابة لما تدعو إليه الملة المحمدية<sup>(٢)</sup>.

★ ★ ★

ويصور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي الجيش الصليبي الغازي، جيشاً جراراً كثير العدد والعدة، فهو كالسيل، أو كالجبال، قدم من أوروبا لغزو العالم الإسلامي، في الشام، ومصر، والجزيرة. ويصور ابن الخياط الدمشقي تلك الجيوش التي غزت بلاد المسلمين في الشام، وعلى رأسها بيت المقدس، معرضاً بها، ومصوراً تلك الجيوش من ناحية، ومعرضاً بالحكام المسلمين، الذين توانوا عن الجهاد من ناحية أخرى، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup>:

إلى كَمْ وَقَدْ زَخَرَ الْمُشْرِكُونَ      بِسَيْلٍ يُهَالُ لَهُ السَّيْلُ مَدًّا  
وقد جاش من أرض إفرنجية      جيوشٌ كمثل جبالٍ تردى

ويصورها فتيان الشاغوري بحراً متلاطم الامواج، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:  
جاشت جيوش الـ\* رك بوم لقيتهم      يتذامرون على متون الضمير  
وكانهم بحرٌ تدافع موجهُ      بظبيٍّ وزُعْفٍ مُحْكَمٍ وَسَنُورٍ

ويصورهم أسوداً قبل الهزيمة، ثعالب بعدها، ويستغرب أن تصيح تلك الأسود الآدمية، طعاماً للأسود المفترسة، كما يبدو في قوله<sup>(٥)</sup>:  
آصَتْ أَسْوَدُهُمْ ثُعَالِبَ ذَلِةٍ      فَهَمُ فَرَائِسُ كُلِّ لَيْثٍ قَسُورٍ

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٦، ٩٧.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٠، ١١١، مفرج الكروب ٢/٢٢٠، وفيات الأعيان ٣/٣٦٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، شفاء القلوب ١٣١، ١٣٢. (٣) ديوان ابن الخياط/ ١٨٢.

(٤) ديوان فتیان الشاغوري/ ١٤٣، ١٤٤. (٥) نفسه/ ١٤٤.

ماتوا بغلَّتْهم وأزوى منهم بيض الصوارمِ بالدمِ المُثعنجر  
 وهم جبابرةٌ قبل المعركة، ولكنهم أصبحوا تائهين أذلاء بعدها، بعد أن منوا  
 فيها بالهزيمة، فالحكيم أبو الفضل عبد المنعم الجلياني يصورهم في قدسيته  
 الكبرى، فيقول<sup>(١)</sup>:

ووقعة يوم التل إذ قبضت به جبابرةُ الإفرنج حيرى وشردًا  
 عليهم من البلوى سرادقُ ذلِّه ومن ذلِّ ماتت نفسه فتقيدا

وهم كثيرون أقوياء كالجبال السماء ذات المسالك الصعبة، ولكن ذلك لم  
 يجد نفعاً أمام الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما  
 يبدو في قول الرشيد النابلسي، من قدسية أنشأها بمناسبة الفتح القدسي<sup>(٢)</sup>:

يومٌ به التأم الكفارُ في عددٍ جم ولكن لكسر ليس ينجبرُ  
 فالرُوعُ مُتَّصِلٌ والصبرُ منفصلٌ والنَّعْ مرتفعٌ والنصرُ مُنحزِرُ  
 جاءوا كما أقبل الطودُ الأشمُّ له من حيث ما سرت فيه مسلكٌ وعِرُّ  
 وجتتهم مثلما انقضَّ القضاء فلا والله لم يُغْنِهِم بأسٌ ولا وِزْدُ

ولكن تلك الجيوش الجرارة التي أحرزت نجاحاً في الحملة الصليبية  
 الأولى بسبب أوضاع العالم الإسلامي كما تقدم، لم تلق مثل ذلك النجاح في  
 ظل العهد الزنكي، ثم في ظل عهد صلاح الدين الأيوبي، فقد منوا بالهزائم  
 المريرة في هذين العهدين، ولم تجد نفعاً جيوشهم الجرارة، وآلوا غثاءً، كما  
 يبدو في قول الحكيم أبي الفضل عبد المنعم الجلياني، في قدسيته الكبرى<sup>(٣)</sup>:

وجرّوا جيوشاً كالسيول على الصوا فاضتْ غُشاءً في البطاح مُمدداً  
 ويصور القاضي الفاضل الأعداء، في رسالته القدسية، كثيري العدد  
 والعدُد، فهم أكثر من الحصى عدداً<sup>(٤)</sup>. ويصورهم العماد الأصفهاني قد  
 «خرجوا عن العد والاحصاء، وانهم كانوا عدد الحصى، وذكر أنهم زادوا على

(١) كتاب الروضتين ١١٧/٢، ١١٨.

(٢) شفاء القلوب/ ١٦٦. (٣) كتاب الروضتين ١١٧/٢.

(٤) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، الدر النظيم/ ٢١، مفرج الكروب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان  
 ١٨٢/٧، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٨/٢٨٤.

خمسين الفا<sup>(١)</sup>. ويذكر القاضي الفاضل انه لما نازل المسلمون القدس رأوا فيها «جمعاً كيوم التناد»، كما يقول. ويصورهم أولي «عزائم قد تألفت وتألبت على الموت»، قبل ما حل بهم من هزائم، ولكن ذلك كله لم يُجدِ فتيلاً، فقد تحولت سيوفهم إلى عصي، وكلت حملاتهم، وعثرت أقدامهم. وغضت عيونهم<sup>(٢)</sup>. ويصور العماد خروج الفرنج استعداداً لمعركة طبرية في سنة ٥٨٣ هـ، وقد خرجوا في جمع شاك، وجمر ذاك، برماحهم، وسيوفهم، ودروعهم، وبين أن الفرنج كانوا يرون الشدة والعزيمة في ألويتهم، والنوازل في بيارقهم، والأدواء في داويتهم، والسيف البتار في استباريتهم. ويصور استعدادهم في صفورية. مرتبين جيوشهم، حاشدين حشودهم، رافعين ألويتهم، متسلحين برماحهم وسيوفهم، ثابني الجأش، رافعي صليب الصليبوت<sup>(٣)</sup>.

ويصور جيشهم وهم سائرون إلى طبرية بأنهم «قدماجت خضارمهم، وهاجت ضراغمهم، وطارت قشاعمهم، وثار غماغمهم، وسدت الأفاق غمائهم، وهم كالجبال السائرة، وكالبحار الزاخرة، أمواجهها متلاطمة، وأفواجهها مزدحمة، وفجاجها محتدمة، وأعلامها مصطلمة...».

ويصورهم في كتاب جامع حول الفتح القدسي، على لسان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام، ظهير الدين طغتكين في اليمن، في تحركهم نحو طبرية، قد استعر جمرهم، وزخر بحرهم، و«أتوا في عددهم وعديدهم، وحدهم وحديدهم، وخيلهم ورجلهم، وطلهم وويلهم، وفارسهم وراجلهم، وأحزاب ضلالهم، وأبطال باطلهم»، كما يصورهم وكأن «ساكنهم لا يتحرك، وصفهم لا ينقض، وجدارهم لا ينقض، وبنيانهم مرصوص، وطائرهم عن الطيران... حصوص»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: الفتح القدسي / ٧٤، ١٢٤، سنا البرق الشامي / ٢٩٥، ٣١٠.

(٢) انظر: مفرج الكروب / ٣٣٨/٣، ٣٤٠، ٤٩٩، وفيات الأعيان / ٧/١٨٢، ١٨٤، صبح الأعشى / ٦/٥٠١، ٢٨٤/٨، ٢٨٦.

(٣) انظر: الفتح القدسي / ٦٣، ٦٥، ٧٣، ٩٤، ١٩٢، ١٩٣، سنا البرق الشامي / ٢٩٣.

(٤) انظر: الفتح القدسي / ٧٧، ٨١، ١٩٤، ١٩٥.

ويركز الأدب العربي على تصوير ما آلت إليه الجيوش الصليبية في مصيرها. ولا تكاد قصيدة قدسية، أو رسالة قدسية، أو خطبة قدسية، أو كتاب قدسي، يخلو من تصوير ما حل بالعدو الصليبي الغازي من هزائم، وما آلت إليه جيوشهم الجرارة، ويركزون على ما حل بملوكهم وقادتهم، والمصير الذي آلوا إليه، ويسخرون منهم سخرية مريرة.

يصور العماد الأصفهاني الكسرة التي نزلت بهم في معركة حطين، والدمار الذي حلّ بجيوشهم، والموت الذي حط بفنائهم، فما عدت ترى جيشاً جراراً، ولا تسمع أبطالاً كانوا يزأرون<sup>(١)</sup>.

ويصور الجيش الصليبي وصفاً يَمُور بالسخرية والتهكم، إذ تصوره جبلاً نسفته الريح، كما يبدو في قوله، من قصيدة يمدح بها الملك الظاهر غازي<sup>(٢)</sup> :  
جيشُ الفرنج إذا لاقى سوابقهم كأنه جَبَلٌ بالريحِ منسوفٌ



ويفصل القاضي الفاضل في توضيح معالم الصورة التي آل العدو الصليبي إليها، بعد الهزيمة التي مني بها، كما جاء في رسائله العديدة، ومنها رسالته القدسية التي كتبها إلى الخليفة العباسي في بغداد، على لسان صلاح الدين، بمناسبة الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ، وفيها يصور ما لحق بهم من ذل، كما يبدو في قوله: «وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الأجال وهي نائمة». ويصور المآل الذي آلوا إليه، على الرغم من كثرة أسلحتهم، وكثرة عددهم، ويقابل بين ما كانوا عليه قبل الفتح في شجاعتهم وقوة عزائمهم، وما آلوا إليه بعده، كما يبدو في قوله: «وقد أظفر الله بالعدو الذي تَشَطَّتْ قناتُهُ شَفَقًا، وطارتُ فِرْقُهُ فِرْقًا، وَفُلُّ سيفه فصار عصا، وَصُدِعَتْ حصانُهُ وكان الأكثر عددًا وحصى، وَكَلَّتْ حملاته، وعثرتُ قَدْمُهُ وكانت الأرض لها

(١) انظر ديوان العماد الأصفهاني ٢٣٤، ٢٣٥، كتاب الروضتين ١٠٧/٢.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٩٧.

حليفة، وغضت عينه وكانت عيونُ السيوفِ دونها كسيفه، ونام جفنُ سيفه، وكانت يقظته تُريق نُطفَ الكرى من الجفون، وجُدعتْ أنوفُ رماحه، وطالما كانت شامخةً بالمنى أو راعفةً بالمنون»، ويصور فرسانه الشجعان مدعين، لا ملجأ لهم ولا نصرة، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، ويصورهم وقد هزموا هزيمة لا جبر لها، وضُرعوا صرعة لا حياة لكفرهم بعدها، ويصور أسراهم وقتلاهم<sup>(١)</sup>.

ويصورهم العماد الأصفهاني قبل ما حلَّ بهم من هزائم بأنهم شديدو العرائك، وقد «خرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت»، وهم يقاتلون جنداً ورعية، وقد كانوا متمادين في طغيانهم، فظاظاً غلاظاً، نزلت الرقة من قلوبهم. وأما بعد معركة حطين، فقد انتشرت جثثهم في ساحة المعركة، يقول: «وعبرتُ بها - حطين - فلقيتُ أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعراء عراة، ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، محذوفة الرقاب، مقطوعة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام، مجدوعة الأناف، منزوعة الأطراف، وكانوا عبرة لأولي الأبصار»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر العماد أنه عبر بحطين، فأراها موضع الاعتبار، وقد رأى «الرؤوس طائرة، والنفوس بائدة، والجسوم رمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي»، وأبصر خدودهم «ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا»<sup>(٣)</sup>، ويصور تعلقهم بكنيسة القيامة، وتأهبهم للدفاع عنها، كما يصورهم وقد «استشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم...»، وهاج هائجهم، وماج مائجهم...، وحضتهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر رسائل عن الحرب والسلام / ١٧٣، الدر النظيم / ٢١، مفرج الكروب / ٣ / ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، وفيات الأعيان / ٧ / ١٨١، ١٨٢، صبح الأعشى / ٦ / ٤٩٩، ٥٠١، ٢٨٤ / ٨، شفاء القلوب / ١٤٣، ١٤٤.

(٢) الفتح القدسي / ٥١، ٨٢، وانظر: سنا البرق الشامي / ٢٩.

(٣) سنا البرق الشامي / ٢٩٧، ٢٩٨.

(٤) الفتح القدسي / ١١٩.

وما أجمل ما يصور به العماد مصير الفرنج بعد الفتح القدسي، في كتاب كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى الناصر لدين الله في بغداد، فيحدد الأيام التي لاقوا فيها سوء المصير، وهي من يوم الخميس، الثالث والعشرين من ربيع الآخر، إلى يوم الخميس منسلخه، فيقول: «وتلك سَبْعُ لَيَالٍ وثمانية أيام حُسوماً، سخرها الله على الكفار، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية»، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية، وفاضَ رِيُّ النَصْرِ من بحيرتها، وقضت على جسرِها الفرنج فقضت نجبها بحيرتها، وفي يوم الجمعة والسبت كُسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القُرى وهي ظالمة . . .» (١).

وأما ملوكهم وقادتهم، فقد كان مصيرهم مصير جيوشهم، فملوكهم ذلوا وهم يقادون في بحر من الدماء، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني (٢):

حَطَّطَتْ عَلَى حِطِّينَ قَدَرَ مُلُوكَهُمْ      وَلَمْ تَبْقِ مِنْ أُنْجَاسِ كُفْرِهِمْ جِنْسًا  
تُقَادُ بِدُمَائِهِ الدَّمَاءِ مُلُوكَهُمْ      أُسَارَى كُسْفَنِ الِیْمِ نَطَّتْ بِهَا الْقُلْسَا

ويصورهم الحسن بن علي الجويني، وقد أصبحوا صيداً في يد صلاح الدين، ويوازن بين صورتهم هذه، وصورتهم من قبل، وقد كانوا سادة صيدا، كما يبدو في قوله (٣):

أَضْحَتْ مُلُوكُ الْفَرَنْجِ الصَّيْدُ فِي يَدِهِ      صَيْدًا وَمَا ضَعُفُوا يَوْمًا وَمَا هَانُوا  
كَمْ مِنْ فَحُولِ مُلُوكٍ غُودِرُوا وَهُمْ      خَوْفِ الْفَرَنْجَةِ وَلِدَانٍ وَنِسْوَانٍ

ويوازن الجواني بين ملوكهم، وقد كانوا سادة أحراراً، وملكوهم الذين ألوا مقيدين بعد هزيمتهم، كما يبدو في قوله، في قصيدته القدسية (٤):

وَمِلِكُهُمْ فِي الْقَيْدِ مَصْفُودٌ وَلَمْ      يُرَ قَبْلَ ذَلِكَ لَهُمْ مَلِيكٌ يُؤَسَّرُ

(١) الفتح القدسي / ٥١٨، ٥١٩.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣، مرآة الزمان ١٤/ ١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤.

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥، تاريخ الخلفاء / ٤١٨.

ويصور ابن سناء الملك الأسرى من ملوكهم، وقد انقلبت المقاييس عندهم، بعد أن كانوا ملوكاً وفرساناً عظماء يتمنون اللقاء في ساحات الوغى، فاصبحوا أذلاء، أرقاء، كما يبدو في قوله موازناً ومقابلاً بين الصورتين، ويبدو ذلك ممزوجاً بالسخرية والتهكم<sup>(١)</sup>:

وَحَوَى الْأَسْرُكُلَ مَلِكٍ يَظُنُّ أَنَّ الدَّ  
وَالْمَلِيكَ الْعَظِيمُ فِيهِمْ أَسِيرٌ  
يَحْسَبُ النَّوْمَ يَقْظَةً وَيَظُنُّ الشَّ  
كَمْ تَمَنَّى الْلِقَاءَ حَتَّى رَأَاهُ  
ظَنَّ ظَنًّا وَكَنتَ أَصْدَقَ فِي الدَّ  
رَقٍّ مِنْ رَحْمَةٍ لَهُ الْقَيْدُ وَالْغَلْدُ

هَرِيفَنِي وَمُلْكُهُ لَيْسَ يَفْنَى  
يَتَشَنَّى فِي أَذْهِمٍ يَتَشَنَّى  
خَصَّ طَوْدًا وَبَصَرَ الشَّمْسَ دَجْنَا  
فَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ مَا تَمَنَّى  
هَ يَقِينَا وَكَانَ أَكْذَبَ ظَنَّا  
لِ عَلَيْهِ فَكَلَّمَا أَنَّ أَنَا

ويركز الشعر على تصوير عدد من ملوكهم وقادتهم الذين كان لهم أثر جلي في الحروب الصليبية، ومنهم (بلدوين)، و (الجوسلين)، و (أرناط)، وغيرهم من الملوك والقادة، فأسامة بن منقذ يتحدث عن كسرهم، وأسرهم، ويعاهد المسلمين على أنه لن تشنى خيول المسلمين إلا بتحرير القدس، كما يبدو في قوله، من قصيدة يتحدث فيها عن أفعال نور الدين زنكي<sup>(٢)</sup>:

وَنَحْنُ أَسْرُنَا (الْجُوسَلِينَ) وَلَمْ يَكُنْ  
وَكَانَ يَظُنُّ الْغُرَّ أَنَا نَبِيْعَهُ  
فَلَمَّا اسْتَبَحْنَا مُلْكَهُ وَبِلَادَهُ  
وَنَحْنُ كَسْرُنَا (الْبَغْدُودِينَ) وَمَا لِمَنْ  
فَسَلَهُ اللَّعِينُ الْحَائِنُ الْخَائِنُ الَّذِي  
وَقَدْ ضَاقتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ بِرَحْبِهَا  
أَفِي غَدْرِهِ بِالْخَيْلِ بَعْدَ يَمِينِهِ  
دَعْتَهُ إِلَى نَكْتِ الْيَمِينِ وَغَدْرِهِ  
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

لِيَخْشَى مِنَ الْأَيَّامِ نَائِبَةً تَعْرُو  
بِمَالٍ، وَكَمْ ظَنَّ بِهِ يَهْلِكُ الْغُرُّ  
وَلَمْ يَبْقَ مَالٌ يُسْتَبَاحُ وَلَا تُغْرُ  
كَسْرِنَاهُ إِبْلَالٌ يُرْجَى وَلَا جَبْرُ  
لَهُ الْغَدْرُ دَيْنٌ: مَا بِهِ صَنَعُ الْغَدْرُ  
فَلَمْ يُنْجِهْ بَرٌّ وَلَمْ يَحْمِهْ بَحْرُ  
بِأَنْجِيلِهِ بَيْنَ الْأَنْامِ لَهُ عُذْرُ  
بَذَمَتَهُ النَّفْسُ الْخَسِيسَةُ وَالْمَكْرُ

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٨١٨.

(٢) ديوان أسامة بن منقذ / ٢٠٣، ٢٠٤.

وما تنشني عنه أعنة خيلنا      ولو طار في أفق السماء به النسرُ  
إلى أن يزورَ الجوسلين مُسَاهماً      له في دياجٍ ما ليلتها فجرُ  
ونرتجعَ القدسَ المُطَهَّرَ منهمُ      ويُتلى بإذن الله في الصخرة الذُّكْرُ

ومن الواضح ان أسامة يقابل بين صورتين لأولئك القادة، صورة قبل الهزائم التي كانت تحل بهم، وأخرى بعدها، فهو يصور الجوسلين بأنه لم يكن يخشى نائبة نواب الأيام، وقد أصبح أسيراً يحاول أن يفتدي نفسه بالمال، ولكن أتى له ذلك؟ ويصفهم بأنهم أصحاب خيانة، وغدر، ومكر وأما أرناط، فيصوره العماد الأصفهاني، في قصيدة قدسية، في غدره وبغيه ونكته للعهود، وهو الذي عمل على مهاجمة أقدس مقدسات الإسلام والمسلمين في مكة والمدينة، وقد ألحق بالإسلام والمسلمين الكثير من الأذى، واعتدى على قوافل حجيج المسلمين، ولهذا نال جزاءه، إذ قتله صلاح الدين بسيفه. ويركز العماد على تصوير قتله بأسلوب يفيض بالسخرية، والتهمك. ويقرن ذلك بتمجيد صلاح الدين، وتمجيد السيف الذي طهر الأرض من شر أرناط وآثامه، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:

شكا يَساً رأسَ البرنسِ الذي به      تَنَدَى حَسامُ حاسمُ ذلك اليَسا  
حسا دَمَهُ ماضي الغرارِ لغدرِهِ      وما كان لولا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحسى  
فلله ما أهدى يَداً فَتَكَتْ به      وأطهرَ سيفاً معدماً رَجْسَهُ النَجْسا  
نَسَفَتْ به رأسَ البرنسِ بضربة      فأشبهه راسي رأسه العَهْنِ والبرسا  
تَبَوَّغَ في أوداجِهِ دَمُ بَغْيِهِ      فصالَ عليه السيفُ يَلْحُسُهُ لَحْسا  
بعثتَ إمامَ أمةِ النارِ نحوها      فزارَ أمامَ أرناطها ذلك الحَبْسا  
ويصوره، في قدسية ثانية، يتحدث خلالها عن معركة حطين، بأنه كان عظيم الكفر والكفار، ويشيد بالسيف الذي برى رأسه. ويصوره في شركه، وغدره، وخبثه، ويصور رأسه وقد اجثتت عن جسده، وهي صورة جديدة مثيرة غريبة، كما يبدو في قوله<sup>(٢)</sup>:

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٥، ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣، ٨٤، وانظر ص ٨٢ من هذا البحث.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٢٩، ٢٣٠، كتاب الروضتين ٢/ ٨٣.

يا طُهر سَيْفِ بَرى رأسِ البرنسِ فقد  
وغاصَّ إذا طارَ ذاكَ الرأسُ في دمه  
ما زالَ يعطسُ مزكوماً بغدْرتهِ  
عَرى ظُباهِ من الأعمادِ مهْرِقةِ  
مَنْ سيفه في دمائِ القومِ منغمسُ  
مِنْ كلِّ مَنْ لَمْ يَزَلْ في الكفرِ منغمسا

ويسخر الحكيم أبو الفضل عبد المنعم الجلياني من ملوك الصليبيين وقادتهم، فقد كانوا يظنون أنهم ملوك الأرض الذين يخضع لهم الملوك الآخرون، وتزداد سخريته عندما يصور أحد ملوكهم قادمًا إلى المشرق الإسلامي لحماية كنيسة القيامة، ويصوره متصرفًا بالعراق وكأنه ملك له، وإذا به يؤول إلى سوء المصير، كما يبدو في قوله<sup>(١)</sup>:

وقالوا ملوكُ الأرضِ طَوْعَ قيادنا  
وقد أقطعَ الكنندُ العراقَ موقعا  
وأقسمَ أنْ يَسْقِي بدجلة خيله  
فما عقَدَ الراياتِ إلا محللا  
إذا الكل منهم في القيود معبدا  
فأودع سجننا وسط جلق مؤصدا  
فما ورد الأزدن إلا مُصَفِّدا  
ولا حَلَّلَ الراياتِ إلا معقدا

ويصور القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، كيف خرج «باليان بن بارزان» طالبا تسليم بيت المقدس بالسلام والأمان، وقد بدا ذليلاً. ويقابل القاضي الفاضل بين ما كان عليه القائد الصليبي، وما آل إليه من سوء المصير، يقول: «وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم ابن بارزان» سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذل الملكة (أي ان يصبح مملوكاً) بعد عز المملكة، وطرح جبينه في التراب، وكان لا يتعاطاه طارح». ويصور المفاوضات التي جرت بين المسلمين وعدوهم من أجل التسليم، وكيف قُبِل منهم ذلك «عن يد وهم صاغرون»<sup>(٢)</sup>.

ويصور العماد الأصفهاني، في حديثه عن فتح بيت الله المقدس، كيف

(١) كتاب الروضتين ١١٧/٢.

(٢) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٨٣، ١٨٤، الدر النظيم/ ٢٩، ٣٠، مفرج الكروب ٣/٣٤١، وفيات الأعيان ٧/١٨٥، صبح الأعشى ٦/٥٠٢، ٢٨٧/٨.

شغل بال باليان هذا عندما سمع بخبر توجه السلطان صلاح الدين نحو القدس لفتحه، ويصوره وقد اشتعل باله بالنيران، وضاقت به وبغيره من القادة منازلهم، وكان «كل دار منها شرك للمشرك» منهم.

ويصور «إبرنس الكرك» «نابشاً شر الشرك نصب الشرك». ويصوره بأنه كان «أعدر الفرنجة، وأخبثها، وأفحصها عن الردى، وأنقضها للمواثيق المحكمة وأنكثها». ويصور مصيره بعد معركة حطين، وكيف ضربت رقبتة، وعُجل به إلى النار، مأوى أهل الغدر<sup>(١)</sup>.



ويصور الأدب العربي القدسي فرسانهم وكأنهم السيول عدداً، والجبال قوة وثباتاً، وهم الذين قتلوا، ونهبوا، وهتكوا، فكانت سيوفهم ورماحهم داميات، دون أن يلقوا مقاومة حقيقية، في الحملة الصليبية الأولى لانقسام المسلمين، وتفرقهم، واستسلامهم، ومحاربة بعضهم بعضاً.

ويصورهم العماد الأصفهاني ذوي أخلاق خشنة قاسية، ولكنها خشونة وقسوة ذهبت بحد السيف، كما يبدو في قوله<sup>(٢)</sup>:

أَتَوْا شُكْسُ الْأَخْلَاقِ خُشْنًا فَلَيِّنَتْ

حُدُودَ الرَّقَاقِ الْخُشْنِ أَخْلَاقَهَا الشُّكْسَا

طَرَدَتْهُمْ فِي الْمَلْتَقَى وَعَكَسَتْهُمْ  
مَجِيداً بِحَكْمِ الْعَزْمِ طَرْدَكَ وَالْعَكْسَا

ويركز الأدب في حديثه على فرقتين عسكريتين من أهم فرق الجيوش الصليبية، وهما الداوية، والاستبارية، وقد اشتهر فرسان هاتين الفرقتين بالقوة والشجاعة، وقد ألحقوا بالمسلمين أذى كبيراً، وكان لهم دور بارز في الحروب الصليبية، إلى حد أصبحوا فيه حماة الصليبيين في الشام.

يدعو العماد الأصفهاني السلطاني صلاح الدين إلى القضاء على

(١) الفتح القدسي / ٥٩، ١١٧، وانظر: ١٢٦، ١٢٧، ١٩٧، ١٩٨، سنا البرق الشامي / ٣١١.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٤، كتاب الروضتين / ٨٣/٢.

الاستبارية كما يبدو في قوله من قصيدة أنشأها في سنة ٥٧٢ هـ<sup>(١)</sup>:

فَسِرْ وافتح القدس وأسْفُكْ به دماءً متى تُجرها تَنْظِفِ  
وأهدِ إلى الاستبارِ البتارَ وهُدِّ السقوفَ على الأسقفِ  
وخلِّص من الكفر تلك البلادَ يُخلِّصك رُك في الموقفِ

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني فرسان هاتين الفرقتين أقوياء متحدين، وكأنهم سد شديد الحصانة والمنعة. ولكن ذلك لم يُجد فتياً أمام جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين، في سنة ٥٨٣ هـ، كما يبدو في القصيدة الفتحية الناصرية مصورة فرسانهم هؤلاء، مزوجة ذلك بالسخرية والتهكم<sup>(٢)</sup>:

مالي أرى مَلِكَ الإفرنج في قفص أين القواضب والعسالة السُمُرِ  
والإسبتارُ إلى الداوِيَّة التأموا كأنهم سدُّ يأجوج إذا استجروا  
والنفس مولعة عُجْباً بسيرتها وفي المقادير ما تُسلى به السَّيرُ  
ويصور فتيان الشاغوري المصير الذي آل إليه فرسان الداوية في المعارك

الحامية الوطيس، كما يبدو في قوله<sup>(٣)</sup>:

كم أودَعْتَ دَوِيَّةً داوِيَّةً صُدعوا بها في المعركِ المُستوعِرِ  
جعلت لها الثارات في آنافنا أرج العرار وطيب عَرَفَ العَبرِ

ويصور العماد الأصفهاني، في حديثه عن البيت المقدس، الفرسان الداوية، والاستبارية، مقبلين على القتال، متلهفين عليه، وأيديهم «على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة»، و «في كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب»<sup>(٤)</sup>، كما يقول العماد في تصويره إقبالهم على القتال. ولكن ذلك كله لم يُجد نفعاً في معركة حطين، أو عند الفتح القدسي، أو غيرهما من المعارك الحاسمة. لقد كانوا شجعاناً كما يصورهم فيما تقدم، قبل هزيمتهم في سنة

(١) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٠٤، خريدة القصر - قسم شعراء مصر ١٥/١، كتاب الروضتين ١/٢٦٩،

مفرج الكرب ٥٦/٢.

(٢) كتاب الروضتين ١١٦/٢.

(٣) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٥.

(٤) الفتح القدسي / ١٢٥.

٥٨٣ هـ، ومن ذلك تصويره فرق الفرنج العسكرية، وقد «وثبوا في وثبات  
الأساد، وحملوا في ثبات الأطواد». ويضيف العماد قوله بأنه لولا «أن الله  
أصبح أصحابنا التوفيق، لكاد الكفر ينجو، والإسلام لا يدرك ما يرجو». هذا  
ما كان قبل المعركة، وهذه هي الصورة التي صورهم بها قبل المعركتين  
الحاسمتين: حطين وبيت المقدس، ولكن أولئك الفرسان ألوا بعدها إلى أسوأ  
مصير، بين قتل، وأسر<sup>(١)</sup>.

ويصورهم العماد يلبسون الزردي من هامة الرأس حتى القدم، وكان الواحد  
منهم «قطعة من حديد»، وهو مقبل على المعركة<sup>(٢)</sup>.

★ ★ ★

ويصور الأدب العربي أسراهم مصفدين بعد أن أدار عليهم صلاح الدين  
«رحى طحونا»، فنزلت بهم صروف الأحداث، وخانهم الزمان، كما يقول ابن  
الساعاتي<sup>(٣)</sup>. ويصورهم وقد حل بهم الفناء، إما قتلاً، وإما أسرا، كما يبدو في  
قول العماد الأصفهاني، في إحدى قدسياته<sup>(٤)</sup>:

أفناهم قتلهم والأسرفانتكسوا      وبيت كُفهرهم من خبيثهم كنسا

ويصورهم عبد المنعم الجلياني وقد سيقوا أسرى، وبيعوا بأبخس الأثمان،  
كما يبدو في قوله<sup>(٥)</sup>:

أتوا كحبال أبرمت لإسارنا      فسُقناهم فيها قطينا مجددا  
وساموا تجارا تشترينا غواليا      فبعناهم بالرخص جهراً على النداء

وقول فتیان الشاغوري مصوراً بعض أسرى صلاح الدين<sup>(٦)</sup>:

(١) انظر: سنا البرق الشامي / ٢٩٢، وانظر / ٢٩٨.

(٢) انظر: الفتح القدسي / ٢٤٩، سنا البرق الشامي / ٢٩٧، ٣٠٩.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي / ٤٠٦، الروضتين / ٢-٨٤-٨٥، مفرج الكروب / ٢-١٩٨، شفاء القلوب / ١٢٦-١٢٨.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٠، كتاب الروضتين / ٢-٨٣.

(٥) كتاب الروضتين / ٢-١١٧.

(٦) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٦.

أغلى الأداهم مَنْ أَسْرَتْ وَأَرْحِصَتْ      بِيضُ الصَّوَارِمِ مِنْ نَهَابِ العَسْكَرِ

★ ★ ★

ويصورون صليب صلبوتهم بين الأسرى، فابن سناء الملك يصور كيف ظل معبودهم اسيراً لدى السلطان صلاح الدين، وهو أسير مستضام، ويدعوه الشاعر إلى ان يجعل النار سجناً لذلك الاسير<sup>(١)</sup>. والحكيم أبو الفضل عبد المنعم الجلياني، يصور صليب صلبوتهم منكسا، وقادتهم أسرى، كما يبدو في قوله، في قصيدته الفتحية الناصرية<sup>(٢)</sup>:

بَيْنَا سَبَايَاهُ تُجَلَى فِي دِمَشْقٍ إِذَا      مَلِكُ الفَرَنْجِ مَعَ الأَتْرَاكِ مُحْتَجِزُ  
إِزَاءَ زَعْمَاءِ السَّاحِلِينَ مَعاً      مُصَفِّدِينَ بِحَبْلِ القَهْرِ قَدْ أُسْرُوا

ويصفون صليب الصلبوت، وكان قد اخذه صلاح الدين، ثم سيره ابنه الأفضل إلى الديوان العزيز ببغداد، بأنه ذهب يزيد على العشرين رطلاً مرصعاً بالجواهر<sup>(٣)</sup>. ويصور القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، كيف أسرت سراتهم، وكيف أسر ملكهم، ويده صليب الصلبوت، يقول: «وأسر الملك ويده أوثق وثائقه، وآكد وصلته بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت»، ويصور مكانة ذلك الصليب في نفوسهم، فقد كانوا يقاتلون تحته أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقاً عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه<sup>(٤)</sup>.

ويصور العماد الأصفهاني أسراهم بعد معركة طبرية، عندما جلس السلطان لعرض أكابر الأسرى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكاري، ومنهم عدة من ملوكهم وقادتهم، وعدة كثيرة من الداوية والاسبتارية. ولكثرة أسراهم «لم تكف أطناب الخيم لقيده وشده. ولقد رأيت في جبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميمهم حارس». وعمل صلاح

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٨١٨، مفرج الكروب ٢ / ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧ / ٩١.

(٢) كتاب الروضتين ٢ / ١١٧.

(٣) انظر: العنبي (والعقبى عن الروضتين) ٢ / ٢٢٥.

(٤) رسائل عن الحرب والسلام / ١٧٦، ١٧٧، الدر النظيم / ٢٣، ٢٤، مفرج الكروب ٣ / ٣٣٩، وفيات

الأعيان ٧ / ١٨٣، صبح الأعشى ٦ / ٥٠٠، ٨ / ٢٨٥، وانظر: الفتح القدسي / ٧٤.

الدين على تطهير الأرض من الداوية والاستارية<sup>(١)</sup>. ويصور العماد صليهم  
الأعظم أسيراً.

وكان الفرنج في خروجهم من القدس قد «اقتسمتهم أيدي السبي أيدي  
سبًا، وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا»، كما يقول العماد  
الأصفهاني<sup>(٢)</sup>.

### ★ ★ ★

ويصور الأدب سباياهم كثيرات جميلات، وهن مثل القنافي قد ودهن  
وتثنيهن، أو هن أنسات مثل الظباء، كما يصورهن ابن الساعاتي، في قصيدته  
التي قالها في معركة طبرية<sup>(٣)</sup>. ويصور العماد الأصفهاني سباياهم قد ملأت  
الدنيا، وبيعت في سوق النخاسة بأبخس الأثمان، كما يبدو في قوله<sup>(٤)</sup>:  
سبَايا بلادُ الله مملوءةٌ بها      وقد شريتُ بخساً وقد عرضتُ نخساً  
يُطافُ بها الاسواقُ لا راغب لها      لكثرتها كم كثرةِ توجبُ الوكساً

ويصور العماد الأصفهاني ما أحرز المسلمون من سبايا غانيات،  
مصبيات، وجواري لطيفات، ناهدات متنهديات، فريدات متفردات، ناعمات  
شقيات، قينات نقيات، ساحرت مسحورات، مخدرات مهتوكات، موقرات  
منهوكات. ويصور نساء الفرنج محجوبات هتكن، ومالكات ملكن، وعزيزات  
منحن، وبحيلات تسمحن، وحييات توقحن، ومصونسات ابتذلن، وعقيات  
امتحن، وعذراوات افترعن، وغاليات استرخصن، وعاليات استنزلن، ومليحات  
«مقبلات أوابب، طويلات الذوائب، ثقيات الروادف، خفيفات المعاطف»،  
كما يقول<sup>(٥)</sup>.

### ★ ★ ★

(١) انظر: الفتح القدسي / ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٦، ٩٣، ١٩٦، ١٩٧، سنن البرق الشامي / ٢٩٧.

(٢) انظر: الفتح القدسي / ٨٤، ١٣٥، ١٩٧، ٥١٩، سنن البرق الشامي / ٢٩٦، ٢٩٧.

(٣) ديوان ابن الساعاتي / ٤٠٦-٤٠٨، كتاب الروضتين / ٢-٨٤، ٨٥، شفاء القلوب / ١٢٦-١٢٨.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٣٥، كتاب الروضتين / ٢-٨٣.

(٥) انظر: الفتح القدسي / ٩٣، ١٣٥، ١٣٦، سنن البرق الشامي / ٣٠١.

ويصور الأدب العربي حصونهم، وقلاعهم، وأبراجهم التي احتلوها أو أقاموها. ولكن صورتها لا تبدو جلية في الشعر الذي قيل حول تحرير البيت المقدس، ولكنها تبدو جلية في النثر، ففي الشعر نجد عدداً من الشعراء يشيرون إلى الحصون والقلاع من خلال قصائد المديح التي قالوها في أبطال الحروب الصليبية من المسلمين من أمثال نورالدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهما، مهئين بالانتصارات في المعارك التي أدت إلى فتح حصون وقلاع عديدة، ومن ذلك أن ابن القيسراني أنشأ قصيدة يمدح فيها نور الدين زنكي، في سنة ٥٤٥ هـ، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس.

وفي هذه القصيدة، ورد ذكر عدد من المواضيع من حصون وأبراج<sup>(١)</sup>، وجاء فيها أن نورالدين كان «إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء»<sup>(٢)</sup>. ولم يذكر ابن القيسراني شيئاً عن تلك الحصون والقلاع والأبراج، ولم يذكر فيها أنطاكية، وعزاز، وهذا يؤيد ما تقدمت الإشارة إليه، فالحديث عن الحصون والقلاع والأبراج لا يبدو جلياً في الشعر العربي الذي قيل في موضوع الدراسة هذه. ومن ذلك أيضاً أن ابن القيسراني قال قصيدة يمدح فيها نور الدين زنكي، ويهنته بفتح حصن (إنب) في سنة ٥٤٤ هـ، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس. ويكتفي الشاعر بالإشارة إلى يوم إنب، وإلى أن فتوحات نورالدين وانتصاراته عمت معاقل عديدة<sup>(٣)</sup>. وذكر أنه في سنة ٥٧٥ هـ، فتح السلطان صلاح الدين الأيوبي حصن بيت الأحزان. ويمدح ابن الساعاتي صلاح الدين عندما خرب الحصن، ويركز على الإشادة ببطله، ويهنته بالنصر.

(١) انظر: خريدة القصر - قسم شعراء الشام ١٥٨/١، وانظر: ١٥٧/١ - ١٥٩، الروضتين ٧٢/١، التاريخ الباهر/ ١٠٣.

(٢) كتاب الروضتين ٧٢/١.

(٣) انظر: الروضتين ٥٩/١، وانظر مثل ذلك في: خريدة القصر - قسم شعراء الشام ١٠٨/١ - ١١٠، الروضتين ٨٦/١ - ٨٧، شعر ابن منير/ ٩٨، ديوان ابن منير/ ٢٤٥.

وكل ما نجده في القصيدة يتمثل في الحديث عن وقوف صلاح الدين على حصن المخاضة، وانتصاره هناك، وتخريب الحصن<sup>(١)</sup>. ويشير فتیان الشاغوري إلى ملك حصون أنطاكية، وحصن برزيه، وأثر ذلك على الصليبيين، كما يبدو في قصيدته القدسية، يقول<sup>(٢)</sup>:

لَمَّا مَلَكَتْ حِصُونَ أَنْطَاكِيَةَ      يَسُّ الصَّلِيبُ وَحِزْبُهُ مِنْ مُظْهِرِ  
بَرَزَتْ إِلَى بُرْزِيهِ عَزَمَتِكَ الَّتِي      مَدَّتْ يَدًا عَنْ مَطْلَبٍ لَمْ يَقْصُرِ  
فَتَنَاوَلْتَهُ بِأَيْدِهَا مِنْ بَاذِخٍ      فِي الْأَفْقِ ذِي مِثْلِ يَرُوعُ مُسِيرِ

★ ★ ★

وأما في النثر الفني، فتبدو الصورة جلية، كما نجد في كتابات القاضي الفاضل، أو العماد الأصفهاني، أو ابن الأثير، أو غيرها من الكتابات الأخرى.

يتحدث العماد الأصفهاني عن حصن (بيت الأحزان) مثلاً، وهو حصن من حصون الداوية، في حوادث سنة ٥٧٥ هـ، وهو ما ورد ذكره في الشعر كما تقدم، ويحدد العماد موقعه، فيقول: «والحصن مبني دونها، أي المخاضة من الغرب»، ويبين أن السلطان صلاح الدين خيم بالقرب من المخاضة». ثم يشير إلى أن صلاح الدين، توجه إلى قلعة صفد، وهي قلعة للفرسان الداوية، وقد «أمر بقطع كرومها، وحمل أخشابها»، ثم عاد، وزحفوا إلى حصن بيت الاحزان. ويبين أن وقت الزحف كان بعد العصر، كما يبين أن السلطان وزع جوانب البرج عليه وعلى أمرائه لنقبها، ويصور البرج بأنه «كان محكم البناء، فصعب نقبه» حتى يوم الأحد، إذ تم نقبه في ذلك اليوم وكان النقب ثلاثين ذراعاً طولاً، وثلاث أذرع عرضاً، وكان عرض السور تسع أذرع، وحشي بالحطب ليلة الاثنين، وخرق»، ولكن دون جدوى، ولم يتأثر البرج، فأطفئت النيران، ليتسع النقب. ويصف العماد كيف أطفئت النيران، وكيف وُسِّع النقب، فيقول: «فرايت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب، فخدمت، فعاد نقابوها، فقد بردت، فخرقوه، وعمقوه، وفتحوه، وفتقوه، وشقوا

(١) كتاب الروضتين ١٢/٢.

(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٧، ١٤٨.

حجره، وفلقوه، ثم حشوه، وعلقوه، واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه». وانقض جداره في يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول، فكان انتصار المسلمين<sup>(١)</sup>. ويبين تفصيلات كثيرة، حول الحصن نفسه، وحول المعركة وسيرها، وتاريخها، وتحديد أيامها، وغنائمها، وأسراها، ويفصل كيف تم تخريب الحصن، والمدة التي استغرقها تخريبه، وهي تفصيلات لا نجدها في الشعر، بل لا نتوقع أن نجد مثل ذلك، فالشعر لا يتحمل التفصيلات التي يمكن أن يتحملها النثر الأدبي، كما هو واضح في حديث العماد الأصفهاني الثري من ناحية، وشعر ابن الساعاتي كما تقدم، من ناحية أخرى.

ويصف القاضي الفاضل هذا الحصن نفسه، في رسالة كتبها إلى بغداد، ويصور عرض حائط الحصن، وحجارته العظيمة التي يزيد عددها على عشرين ألف حجر، ويحدد تكلفة الحجر الواحد منها، ويبين أنواع الحجارة التي حشيت بين الحائطين، يقول: «ووضعت له عظام الحجارة، كل فص منها، من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنائير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سفينه بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجة بمثل جسمه وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه»<sup>(١)</sup>. ثم يصف النار التي اشتعلت فيه، فاقتلعت حجارتها، ومحيت رسومه، كما يبدو في قوله: «والنار به مطيفة، وعليه مشتملة وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة، ومن خلفه مسبلة، وناهم قد أطفأها الله بنار تلك الواقعة، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة...، ونفحاتها حميمية وقودها الناس والحجارة...، فولجت النار من موالج يضيق منها الفكر...، وقذفت بشرر كالجمالات الصفر»، إلى أن يقول: «تقدم الخادم صلاح الدين فاقتلع بيده الأحجار من أسسها، ومحا حروف النيران من طرسها»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: الروضتين ٨/٢، ١١، مضمار الحقائق/ ٢٦ - ٢٩، سنا البرق الشامي/ ٣٢٢، البداية والنهاية

٣٠٠/١٢، ٣٠٣.

(٢) انظر: الروضتين ١٣/٢، البداية والنهاية ٣٠٤/١٢.

ويصفه في رسالة أخرى، ويبين أنه كان فيه «نحو الف زردية، وكان المقاتلة فيه ثمانين فارساً بغلمانهم، وخمسة عشر مقدماً للرجال، مع كل مقدم خمسون رجلاً، وكان فيه أصحاب صناعة كالبناء، والمعمار، والحداد، والنجار، والصيقل، والسيوفي، وصانع أنواع الأسلحة. وكان فيه أكثر من مائة أسير من المسلمين، كما كانت فيه أقوات ولحوم تكفي لسنين عديدة. ويصف الكاتب المعركة في أول أيامها، وكيف تمت عملية النقب، وحشيت الثقوب بالأحطاب والنيران إلى أن وقعت الواقعة، وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية». ثم يصف اشتعال النيران في أرجاء الحصن، واحتراق مقدم الحصون، وكيف أصبح الحصن أثراً بعد عين<sup>(١)</sup>. ومن الواضح أيضاً أن القاضي الفاضل يفصل في وصف الحصن وبنائه، واحتراقه وتخريبه، وأثر ذلك في النفوس، وتحديد عدد مقاتليه، والصناع فيه، وغيرهم، كما تقدم.

ومن الحصون التي تقدمت الإشارة إليها في الشعر حصن «بُرزیه»، وهو الحصن الذي أشار إليه فتیان الشاغوري، واكتفى بالإشارة إليه فحسب، ولكننا نجد في النثر تفصيلات في الحديث عنه، حيث نجد وصفاً تفصيلياً له، في كتابات القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني. كتب القاضي الفاضل كتاباً إلى السلطان، يبشر بفتح هذا الحصن، ويصفه بأنه «هو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الأمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال»، وقد كان للكفر درعاً حقيقياً طالما كانت تهزأ بالنصال<sup>(٢)</sup>.

ويفصل العماد الأصفهاني في وصف هذا الحصن، فيتحدث عن موقعه، وعمما يلحق بالمسلمين من الجور، ثم يتحدث عن توجه صلاح الدين إليه، ونصب المنجنقات عليه، وقد فرق عسكره ثلاث فرق تتناوب على قتال أهله، إلى أن تسلمه المسلمون «ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة»<sup>(٣)</sup>. ويفصل الكاتب في حديثه عن فتح هذا الحصن في كتابه الفتح

(١) كتاب الروضتين ١٣/٢.

(٢) كتاب الروضتين ١٣١/٢، ١٣٢، وفيات الأعيان ١٩١/٧، ١٩٢.

(٣) كتاب الروضتين ١٣١/٢.

القدسي . ويصف الحصن بأسلوبه الأدبي المنمق بأنه «أحصن القلاع وأرفعها، وأحسن التلاع وأرفعها، وأسمى الرواسي وأسامها، وأسنى الرواسخ وأسناها» . ويصوره بأنه «قلعة شماء في الذرى لا تكاد من سموها ترى، وهي على سن من الجبل عال مترامية في السماء ارتفاعاً» . ويصف المنجنيقات المنصوبة، ويبين أنها لم تتمكن من الوصول إلى أعلى مواضع في القلعة، ولذا مال السلطان إلى الزحف، وتقسيم عسكره إلى فرق ثلاث<sup>(١)</sup> . ويتحدث الكاتب عن صاحبة هذا الحصن، وهي زوجة الأبرنس صاحب أنطاكية، ولم يكتب العماد الأصفهاني بكتابه هذا، فقد أنشأ كتاباً من كتب البشائر العمادية، يشير فيه بفتح هذا الحصن، يصفه بأنه «لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة»<sup>(٢)</sup> .

ويصور القاضي الفاضل حصن الكرك في العديد من الرسائل، ويتحدث عن حصاره فيقول: «وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجرة، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وكل جوانبها وعرة المرتقى» . ويصفه في كتاب آخر مستلهما القرآن الكريم، فيصور عذاب الله واقعا بالحصن، وأهله، «ماله من دافع، وأن دليل النصر قد ظهر وما دونه مانع، وأما المنجنيقات، فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك»<sup>(٣)</sup> .

ويصف العماد الأصفهاني حصن كوكب، ارتفاعاً، وحصانة، وهو حصن للفرسان الاستبارية يقول: «وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب كأنها وكر العنقاء، ومنزل للعواء، قد نزلتها كلاب عادية، ونزعت بها ذئاب غادية» . ويصف القتال ومحاصرة الحصن، وكان الفصل شتاء، كما يصف ما أبداه الفرنج من ضروب الشجاعة. إلى أن تسلم المسلمون الحصن

(١) انظر: الفتح القدسي / ٢٤٨ - ٢٤٩، ٢٥٠ - ٢٥٤، الروضتين ١٣١/٢ .

(٢) انظر: الروضتين ٥٥/٢، ٥٦ .

(٣) انظر: الفتح القدسي / ٢٧٣، ٢٧٤، سنا البرق الشامي / ٣٢٢، الروضتين ١٢٠/٢، ١٣٤، ١٣٦، صح الأعتى ١٥٥/٤ .

بالأمان<sup>(١)</sup>. ويصفه العماد في كتاب الفتح القدسي بأسلوب مصنوع منمق، مستلهما التراث الشعري، فيصوره بأنه «حصن لا يرام، وركن لا يضام، ومعقل لا يسامى ولا يسام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تفرع، وعقيلة لا تفترع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب»<sup>(٢)</sup>.

ويصف القاضي الفاضل هذا الحصن في كتاب كتبه بلسان السلطان صلاح الدين إلى سيف الإسلام باليمن، بأنه «كرسي الاستبارية، ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم». ويتحدث عن موقعها الاستراتيجي، ووقت النزول عليها. ويصور النصر وأثره على الإسلام والمسلمين، ويصف الشتاء، وهو الفصل الذي فتحت فيه كوكب، كما يصف العدو الصليبي<sup>(٣)</sup>.

ويصف العماد قلعة الفولة بفلسطين، فيذكر أنها أحسن قلعة وأحصنها، وهي حصن حصين من حصون الداوية، «ومكان مكين، وركن ركين، ولهم بها منبع منيع...»، وفيها مشتاهم ومصيفهم، ومربط خيولهم، ومجر ذيولهم، ومجرى سيولهم، ومجمع إخوانهم، ومشرع شيطانهم».

وكان الداوية فيها قد «هاجوا إلى الهيحاء، وطروا في القتلى والأسراء، فنعب الغراب على طول الفولة بدماء أهلها المطلولة، فهي غاب غابت أسودها الحماة، وغيل غالت ليوثة عداتها العداة»<sup>(٤)</sup>.

وكان الصليبيون قد أنشأوا العديد من الحصون، والقلاع، والأبراج لحماية انفسهم ومملكتهم في بيت المقدس، وأشير هنا إلى ما كانوا قد أنشأوه في

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٢٧٣، ٢٧٤، سنا البرق الشامي/ ٣٢٢، الروضتين ٢/ ١٢٠، ١٣٤، ١٣٦، صبح الأعشى ١٥٥/٤.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٧٧، ٢٠٤.

(٣) انظر: الروضتين ٢/ ١٣٦، ١٣٧، صبح الأعشى ٧/ ٢٣-٢٧، ٣٤١-٣٤٤.

(٤) سنا البرق الشامي/ ٣٠٢.

مملكة بيت المقدس كما كانوا يسمونها، فقد انشأوا ابراجاً ثلاثة ضخمة، وهم يحاصرون بيت المقدس، وهي برج صهيون، وبرج آخر بباب العمود، وثالث عند الطرف الشمالي الغربي من الأسوار<sup>(١)</sup>.

ثم أنشأوا قلاعاً في كل من الشوك ومعان، وبذلك أضحي ملك بيت المقدس الصليبي يتحكم في الطرق بين دمشق والحجاز ومصر، وأقاموا قلاعاً وحصوناً ضخمة في مملكة بيت المقدس الصليبية<sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر: تاريخ الحروب الصليبية - رنسيان ٣/٣٣٤، ٦٢٤، ٦٢٥، بلادنا فلسطين - بيت المقدس ١٦٤،

١٦٥.

(٢) انظر: بلادنا فلسطين: بيت المقدس ١٧١/١، ١٨٠، ١٨٦، أنديار النيافة ٥٩١/٢، في ديار الجليل

٧٨/١، ٥١٩.